غُصْنُ الفَيجَن

الطبعة الأولى 2021

صورة الغلاف: تصوير جمال عصام علي ـ البقيعة

تصميم: شربل إلياس

حقوق الطبع والنَّشر محفوظة للناشر

مكتبة كل شيء حيفا

يُمنع طبع، أو تصوير، أو نقل أَيِّ مادَّة من الكتاب،

دون موافقة خَطيَّة مسبقة من الناشر.

الناشر: **مكتبة كلّ شيئ - حيفا 2021**

ناشرون

info@kul-shee.com

www.kul-shee.com

ISBN 987-965-7789-32-82

حسين مهنّا

غُصْنُ الفَيجَن

قصص قصيرة

الفهرست

شُؤمٌ وفَأْلٌ	7
فلاّحٌ وحسُّونٌ..	11
مُؤتمرُ الحَواسِّ..	15
هِوايَةٌ.. !؟	19
لَيلَةٌ بارِدَةٌ.. حارَّةٌ	23
هِنْد..	29
يوريكا.. !	35
تَعاطُفٌ..	41
غُصْنُ الفَيجَنِ..	45
روحٌ مُتْعَبَةٌ..	49
القَرارُ الصَّعْبُ..	55
ذُبابَةٌ..	59
نَعيُ عنترَة..	65
كورونا.. Covid 19	71
الحارَة – أَدَبٌ تسجيلِيّ..	77
الوُسْطَى	91

شُؤمٌ وفَأْلٌ

وقفَ بومٌ على سطحٍ مساءَ يومٍ خريفيٍّ كالحٍ وبَعْدَ أَنْ طارَ ودارَ حَولَ البَيتِ وجَدَ شِقًّا في أَحَدِ الجُدْرانِ بَنى لَهُ فيهِ عُشًّا.. قالَ المارَّةُ ذاهلين: يا له من طائرِ شُؤمٍ، بِئْسَ ما خَتَمْنا به نهارَنا!! قالوا هذا وتابَعوا سَيرَهم يُفكِّرون بما سَيَحُلُّ بِذاكَ الشّابِّ صاحبِ الدّارِ المعروفِ في القريةِ كلِّها بِشُحِّ مالِهِ وغَزارَةِ عِلمِهِ وثقافَتِه. تَساءَلَ أَحدُهم ولم يكنْ يتوقّعُ جوابًا من أحد: ماذا يمكنُ أن يحدثَ لهذا المسكينِ أكثرَ مما هو عليه من فقرٍ وسوءِ حال؟ وبسملتِ امرأةٌ ثمَّ حَوقَلَتْ واستعاذَتْ باللّهِ من شرِّ شيطانٍ رجيم. وانتشرَ الخبرُ في تلك القريةِ الصَّغيرةِ الوادعةِ انتشارَ النَّارِ في الهشيمِ. فسمعَ به القاصي والدَّاني عدا الشّابِّ الّذي لمسَ في اليومِ التَّالي - على غيرِ عادتِهِ - حُبًّا وعَطفًا في نظراتِ المارَّةِ مِن نِساءٍ ومن رِجالٍ وحتّى مِنَ المتسكّعين. قالَ في نفسِهِ: ما بالُهم ينظرونَ ولا يتكلَّمون؟! وراحَ يَنْبُشُ في ذاكرتِهِ علَّهُ يكونُ قد فعلَ فِعلةً تُشينُ أو تثيرُ عطفًا..

وإِذْ هو كذلكَ التَقَى بعجوزٍ تَدِبُّ على عَصاها راجِفَةَ اليدينِ مُثْقلةَ القدمينِ.. سلَّم وقالَ:

-أَصْدِقيني القولَ يا جَدَّةُ.. إنيّ أَرى من النّاسِ عَجَبًا!

-قالتْ بصراحةِ مَنْ خَبرَ الحياةَ وعَجَمَ عودَها:

-لا عليكَ يا ولدي..

وحدَّثتْهُ بحديثِ البومِ داعيةً له بالسَّلامةِ. ضحكَ الشَّابُّ ضحكةً مُجَلْجِلَةً على غيرِ ما تَوقَّعتْ... قالَ: ليتَ أَهلَ قريتي يَنْشَغِلونَ بأُمورٍ أكثرَ نفعًا، وليتهم يعلمونَ كم يَظْلِمونَ هذا الطّائِرَ الجميلَ! فليسَ من شُؤْم أو فَأْلٍ خَارِجَ عُقولٍ شُحِنَتْ بِالأَباطيلِ، وجَعَلَتْ مِنَ العِلْمِ عَدُوًّا

لم يصدِّقْهُ النَّاسُ وظَلُّوا على ما يَعْتَقِدونَ. وبعدَ مرورِ سنواتٍ قليلةٍ، أَفاقوا على خَبَرٍ سَقَطَ على القَرْيَةِ سُقوطَ الثَّلْجِ في شَهْرِ آب! ... فَقَدْ أصبحَ الشّابُّ الفقيرُ ثريًّا.

فلاّحٌ وحسُّونٌ..

أَلْقَمَ الفلاّحُ جسدَه المتعَبَ لظلِّ سِنديانةٍ تسامتْ شامخةً مُتعاليةً على أَخواتِها الشُّجَيراتِ في حقلٍ وَرِثَهُ عن أبٍ عن جَدٍّ اعتادا أن يَزْرَعاهُ قَمْحًا وشَعيرًا وسِمْسِمًا.. أَسْنَدَ ظَهْرَهُ الى جِذْعِها الخَشِنِ العَريقِ عَلَّه يُعطيهِ بعضَ تَعَبٍ ويأخذُ عنه بعضَ صَلابَة. نظرَ حَولَه مُبْتَهِجًا بِخُضرَةِ الأَرضِ وزُرقَةِ السَّماءِ وشَكَرَ خالِقَهُ على ما وَهَبَهُ من صِحَّةٍ وعافِيَةٍ ورِزْقٍ حَلالٍ ومَحَبَّةٍ للأَرْض.. وشعرَ بِفَخْرِ الّذي إذا أُودِعَ وديعَةً حافظَ عليها، وشعرَ أيضًا كم هو سعيدٌ وكم هي الحياةُ سَخِيَّةٌ، فقد وَهَبَتْهُ براءَةَ الطُّفولَةِ، وعَبَثَ الشَّبابِ، ورَزانَةَ الكُهولَ.. ومَنْ يَدري فقد تَهَبُهُ حِكْمَةَ الشُّيوخِ أيضًا!؟ حَقًّا إنَّها لَدَورَةٌ مُحكَمَةٌ، تمامًا كدَورَةِ الطَّبيعَةِ: رِقّةُ ربيعٍ وقوّةُ صَيفٍ وضَعفُ خَريفٍ وقَساوةُ شِتاءٍ... تَبَسَّمَ لِهذهِ الخَواطرِ الّتي لم تَشْغَلْ بالَهُ يومًا ومَدَّ يَدَهُ الى زادِهِ وشَرَعَ يأْكُلُ بِشَهيَّةٍ عالِيَةٍ مُرَدِّدًا قَولًا حَفِظَهُ عن والِدِهِ: لقمةٌ في بُسْتان، أَشْهى من لُقْمَةٍ على مائِدَةِ السُّلْطان!

وإذْ هو كذلكَ حَطَّ حَسَّونٌ على السِّنديانَةِ فَوقَهُ وأَخَذَ يُغَرِّدُ آمِنًا مُطْمئِنًّا، فَازْدادَ الفَلاّحُ غِبْطَةً وسُرورًا، فَتَغْريدُ الحسَّونِ عِنْدَهُ فَأْلٌ وأَلْوانُهُ الخَمْسَةُ البديعَةُ أمَل.. وفَكَّرَ في نَفْسِهِ،

تُرى ما كانَ سيكونُ شَكْلُ هذا العالَمِ بدونِ هذهِ الطُّيورِ البَديعَة!؟ بَلَعَ اللُّقْمَةَ الَّتي في فَمِهِ، وخُيِّلَ لَهُ أَنَّها أَشْهى لُقْمَةٍ ازْدَرَدَها في حَياتِه.

صمتَ الحسّونُ فجأةً، نظرَ الفلاّحُ فَوقَهُ، وإذا بأفعى رَقْطاءَ تَبْتَلِعُهُ، وكانَتْ قد تَرَصَّدَتْهُ وهوَ مُنْشَغِلٌ عنها بِإِقْبالِهِ على الحياة. بُهِتَ لِما رَأَى، وأَسِفَ على الحَسّونِ المِسْكينِ الَّذي غَمَرَهُ بِسعادةٍ سُرعانَ ما لَمْلَمَتْ بَعْضَها وتَرَكَتْهُ مُتَلَفِّعًا بِصَمْتِهِ وَحُزْنِه.

– ما أقربَ الموتَ! وما أبعدَ الأمانيَّ!! همس الفلاّحُ عائِدًا إِلى مِعْوَلِه.

مُؤتمرُ الحَواسِّ..

مسح المثّالُ المتعبُ العرقَ المتصبّبَ عن جبينه بعد أن فرغَ من نَحْتِ تمثالٍ ، بِحَجْمِهِ الطَّبيعيِّ لِصَقْرٍ قد تَوقَّدَتْ مُقْلَتاهُ شَرَرًا، وانْتَشَرَ جَناحاهُ بَطْشًا وتَقَحُّمًا، ثمَّ جَلَسَ مَسْرورًا مَخْمورًا بِما صَنَعَتْ يَداه، شاكِرًا السَّماءَ على ما وَهَبَتْهُ مِنْ لَحَظاتٍ مُبارَكَةٍ تَجَلَّى فيها فَنَّانًا مُبْدِعًا. وبَينَما هُوَ مُوَزَّعٌ ما بينَ إعْجابِهِ بِتِمْثالِهِ وبينَ قَلَقِ الفَنّانِ الصّادِقِ مَعَ نَفْسِهِ، المُخْلِصِ لِفَنِّهِ، أَخَذَتْهُ غَفْوَةٌ مُفاجِئَةٌ سُرعانَ ما اسْتَحالَتْ سُباتًا عَميقًا أَخَذَهُ مِنْ واقِعٍ جَميلٍ إِلى حُلُمٍ أَجْمَلَ.. وهُنا تَنادَتِ الحَواسُّ لِتَعْقِدَ مُؤتمَرًا طارِئًا تُهنِّئُ فيهِ بَعْضَها على تُحْفَةٍ نادِرَةٍ أَبْدَعَتْها يَدُ الجَماعَةِ وتَوَّجَها ذَوقٌ رَفيعُ.

قالَتِ البَاصِرَةُ وَقَدْ أَخَذَتْها سَوْرَةُ الغُرورِ:

-ما أَبْخَسَ حَظَّكُنَّ إِلى جانِبِ حَظِّي يا أَخَواتِي التَّاعِساتِ، لَومايَ- أَنا العينَ الباصِرَةَ- هَلْ كانَ لِمِثْلِ هذا العَمَلِ البَديعِ أَنْ يَتِمَّ؟!

بَهَتَ الجَميعُ ورانَ على المُؤتمَرِ صَمتٌ لا مَعْنَى لَهُ سِوى البَغْضاءِ تَشُقُّ طَريقَها إِلى القُلوبِ المُتَحابَّةِ.. وهُنا تَصَدَّتْ لَها الذِراعُ العَضِلَةُ قائِلَةً:

-لا تَنْسَي يا عَزيزَتي أَنَّهُ لَولا ضَرَباتي الشَّديدَةُ بِمِطْرَقَتي

الثَّقيلَةِ، هَلْ كانَ الإزْميلُ قادِرًا على أَنْ يَفْعَلَ الأَفاعيلَ في الصُّخورِ الصَّمّاءِ؟

أَمَّا الأناملُ فَقَدْ قُلْنَ بِهُدوئِهِنَّ المُعْتادِ:

-نَرجو أَلّا يُغْمَطَ حَقُّنا في مُساهَمَتِنا بِإِبْداعِ هذا التِّمْثالِ، ونَحْنُ اللَّواتي نُفَرِّقُ بَينَ المَناطِقِ المَلْساءِ مِنَ الخَشِنَةِ فيهِ.

وتابَعْنَ قائِلاتٍ:

-ليسَ مِنَ المَعْقولِ أَنْ نُنْكِرَ على بَعْضِنا أَدْوارَنا وَنَحْنُ الأَخَواتُ المُتعاوِناتُ والمُتَّحِداتُ في السَّرّاءِ وفي الضّرّاءِ، أَمَا كانَ الأَجْدَرُ بِنا أَنْ لا نُفاضِلَ بَينَ حاسَّةٍ وأُخْتِها حَتَّى لو تَأَخَّرَتِ الواحِدَةُ مِنّا أَو تَقَدَّمَتِ الأُخْرَى.....

وكادتِ الفَوضَى تَعُمُّ مؤتمرَ الحواسِّ لولا أَنْ أَضاءَ المَكانَ نُورٌ شَعْشَعانيٌّ تَبِعَهُ صَوتٌ روحانيٌّ يَقولُ:

-لا تَنْسَينَ أَنَّني هُنا فَوقَكُنَّ أُمْلي عَلَيكُنَّ ما أَنْتُنَّ فاعِلاتٌ!

وَما إِنْ غابَ الصَّوتُ تَمَلْمَلَ المَثّالُ في رَقْدَتِهِ، ولِسَبَبٍ ما سقطَ التِّمثالُ من على الطَّاوِلَةِ على أُمِّ رَأْسِهِ وقَتَلَهُ، فانطفأت الباصِرةُ وتقبَّضَتِ الأناملُ ثمّ تراختْ؛ وجَمَدَتِ الحواسُّ جميعًا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرِها سِوى ما صَنَعَتْ، مُجتَمِعَةً، مِنْ رَوعَةِ الإِبْداعِ ..

هِوايَةٌ.. !؟

يَمامَةٌ حَطَّتْ على غُصْنِ زَيتونَةٍ.. تَرَحَّمْتُ على سيِّدِنا نوح وقُلْتُ: رَمْزا سَلامٍ جَميلانِ.. وتَصَوَّرْتُ أَنَّ نَهاري قَدْ بَدَأَ جميلًا، لابُدَّ من أَنْ يَنْتَهي جَميلًا أَيضًا.. نَظَرَتِ اليَمامَةُ يمَينًا، ثُمَّ نَظَرَتْ شِمالًا.. تَبْدو مَزْهوَّةً بِريشِها البُنِّيِّ المُبَرْقَشِ.. مُعْتَزَّةً بِحُرِّيَّةٍ لا حُدودَ لَها.. ولِمَ لا! فَزُرْقَةُ السَّماءِ لَها.. وخُضْرَةُ الحُقولِ المُمْتَدَّةِ حتّى الأُفُقِ لها.. والأَرضُ طَيِّبَةٌ.. والخَيرُ وَفيرٌ..

تَساءَلْتُ بِسَذاجَةِ طِفْلٍ:

-هذِهِ اليَمامَةُ بِماذا تُفَكِّرُ الآنَ؟ عَفوًا.. يَقولُ أَصْحابُ الدِّرايَةِ بِعِلْمِ الطَّيرِ: إنَّ التَّفْكيرَ خَصَّهُ اللهُ لِلْإِنْسانِ دونَ غَيرِهِ من شُرَكائِهِ في الحَياةِ على هذِهِ الكُرةِ.. إذًا، فَلأُصَحِحِ السُّؤالَ.. أَينَ سَتَقودُها غَريزَتُها وهيَ الآمِنَةُ في عَليائِها، الضّامِنَةُ لِنَفْسِها حَياةً طَويلَةً.. حَياةَ أَمْنٍ وسَلامٍ.. لا شَكَّ في أَنَّها سَتَهْدِلُ ما طابَ لَها الهَديلُ.. ولا شَكَّ في أَنَّ هَديلَها سَيَنْزِلُ في القُلوبِ مَحَبَّةً ورَحْمَةً..

طَلْقَةٌ تُمَزِّقُ لُحْمَةَ الانْسِجامِ.. تَسْقُطُ اليَمامَةُ ريشًا مَنْفوشًا مُضَرَّجًا بِالدِّماءِ.. يَلْتَقِطُها سَلوقِيٌّ مُتَهالِكٌ في خِدْمَةِ سَيِّدِهِ.. والصَّيّادُ الّذي رَبَّتَ على فَروَةِ خادِمِهِ اللامِعَةِ المَلْساءِ بِحَنانٍ،

أَضافَ اليَمامَةَ المِسْكينَةَ الحالِمَةَ بِعُمْرٍ مَديدٍ الى صَيدِهِ المُعَلَّقِ على جانِبَيهِ بِطَريقَةٍ تَنِمُّ عَن غِلاظَةٍ وقَسْوةٍ!!

قُلْتُ وأَنا ما بَينَ عَضَّةِ الأَلَمِ ومَرارَةِ السُّخْرِيَةِ:

-صَيدُكَ وافِرٌ! سَتَكونُ مائِدَتُكَ عامِرَةً هذا المَساءِ!

قالَ بِكِبْرِياءِ جُنْدِيٍّ قَضى لِلتَوِّ على كَتيبَةٍ مِنَ الأَعداءِ:

-لا.. لا.. الصَّيدُ عِنْدي هِوايَةٌ...!!

لَيلَةٌ بارِدَةٌ.. حارَّةٌ

لَيسَ من عادَتِهِ أَنْ يَدْخُلَ مَكْتَبَهُ في اللَّيالي الباردَةِ إذا ما أَلَحَّتْ عَلَيهِ نوازِعُ الكِتابَةِ.. بَل من عادَتِهِ أَنْ يَلُفَّ جَسَدَهُ المَقْرورَ حتّى العَظْمِ بِعَباءَتِهِ التَّقليدِيَّةِ السَّميكَةِ ويَجْلِسَ بِجانِبِ الوِجاقِ بِطَريقَةٍ تُعْطي الحُرِّيَّةَ لِيَدَيهِ كي تَتَحَرَّكا..

وبِما أَنَّهُ لا يُؤْمِنُ بِما يُؤْمِنُ بِهِ مُعْظَمُ الأُدَباءِ بِأَنَّ هناكَ طُقوسًا تَعَوَّدوها أَثْناءَ جُلوسِهم لِلكِتابَةِ، كَأَنْ يَكْتُبوا على وَرَقٍ خاصٍّ، وبِحِبْرٍ خاصٍّ وما الى ذلك، فقد أَخَذَ وَرَقَةً وقَلَمًا وبَدَأَ يُتَرْجِمُ أَفْكارَهُ المُتَزاحِمَةَ في جُمْجُمَتِهِ الى كَلِماتٍ، راجِيًا أَنْ يُسْعِفَهُ مَخْزونُهُ اللُّغَوِيُّ والثَّقافيُّ فَيَكْتُبَ ما يَروقُ لِلْقارِئِ المِسْكينِ الّذي يُرْجَمُ كُلَّ يَومٍ بِما تَنْشُرُهُ الصُّحُفُ والمَجَلّاتُ.. من.. من .... ولم يَقُلْها تَأَدُّبًا.

المَطَرُ الشَّديدُ والمَصْحوبُ بِالبُروقِ والرُّعودِ يَشَدُّ انْتِباهَهُ، المَشْدودَ أَصْلًا، الى زَمَنٍ مَضى.. الى بَيتٍ تُرابيٍّ، وكيفَ كانَ سَطْحُهُ، رغمَ دَحْلِهِ ودَلْكِهِ جَيِّدًا، يَسْتَسْلِمُ لِضَرَباتِ المَطَرِ والبَرَدِ فَتَخْتَرِقُهُ قَطَراتُ الماءِ، وتَسْقُطُ على فِراشِ النّائِمينَ، فَلا يَتَذَمَّرونَ ولا يَشْتُمونَ، كيفَ! والسَّماءُ تَهُرُّ الخَيرَ هَرًّا، وغَزارَةُ المَطَرِ بُشْرى خَيرٍ لِمَوسِمٍ قادِمٍ.. حَتّى البَرَدُ والثَّلْجُ والصَّقيعُ كانَتْ ظَواهِرَ طَبيعِيَّةً مُحَبَّبَةً عِنْدَهُم.. وحَمَلَتْهُ

الذِّكْرى الى يَومٍ رَأَى الماءَ المُنْصَبَّ منَ الميزابِ وقَد تَجَمَّدَ وُصولًا الى الأَرضِ.. مَنْظَرٌ انْحَفَرَ في ذاكِرَتِهِ الطُّفولِيَّةِ تمامًا كَقِصَصِ كامل كيلاني الشّائِقَةِ عنِ السَّحَرَةِ والسِّحْر.

كَم افتقَدَ ظَواهِرَ الشِّتاءِ تِلكَ! فَقالَ مُتَرَحِّمًا: يَقولُ عُلَماءُ الميتْرولوجيا (الأَرصادُ الجَوِّيَّةُ) إنَّ دَرَجَةَ حرارَةِ الغِلافِ الجَوِّيِّ قد ارتَفَعَتْ ما بَينَ اثْنَتَينِ الى سَبْعِ دَرَجاتٍ مِئَويَّةٍ بِفِعْلِ نَشاطِ الإنْسانِ وإفرازاتِ التِّكْنولوجْيا.. سَمِعَهُ الأَبناءُ فَقالوا:

-عقاربُ السّاعَةِ لا تَدورُ الى الوَراءِ! اشْتَرِ لَكَ حِمارًا وسافِرْ عليهِ!

ضَحِكَ اسْتِخْفافًا، وضَحِكوا تَنَدُّرًا.

وفَكَّرَ.. كم هو خَطيرٌ الابْتِعادُ عن عالَمِ الطّينِ والغَرَقُ في عالَمِ الإسْمِنتِ.. فَإِذا قُلْتَ لِأَبْنائِكَ: استَحْصَدَ القَمْحُ أَو شمْسُ الأَصيلِ أَو ليلَةٌ قَمْراءُ، لَمَا فَهِموا! وقالوا: حَديثُ الأَمْسِ لا يُطابِقُ حَديثَ اليومِ! وإذا قُلْتَ مُسْتاءً: خُلِقَتِ الطُّيورُ لِلأَشْجارِ وللسَّماءِ! قالوا: لا يُغَرِّدُ الكَناريُّ إلّا في قَفَصٍ! .... وأَمّا ثالِثَةُ الأَثافيِّ فَكُلَّما نَظَرَتْ إحداهُنَّ وَجْهَها في المِرْآةِ فَرَأَتْ غَضْنًا هَرَعَتْ الى أَقْرَبِ أَخِصّائِيٍّ تَجميلٍ!

رَحِمَ اللّهُ أُمَّهاتٍ وَلَدْنَنا ما اغتَسَلْنَ إلّا بِصابونَةِ زَيتِ الزَّيتونِ، وما تَعَطَّرْنَ إلّا بِعَرَقِ العافِيَةِ.. وكُنَّ أَجْمَلَ الجَميلات.

بَرْقٌ خاطِفٌ مَتْبوعٌ بِرَعْدٍ قاصِفٍ أَعاداهُ الى الواقِعِ.. وتَساءَلَ كَيفَ وَصَلَ الى هذا الحَدِّ منَ الضَّعْفِ، لَعَلَّ سَنَواتِهِ السَّبْعينَ السَّبَبُ الرَّئيسُ في ذلكَ، واه ...!!! لَقَدْ عِشْنا طَويلًا، تَمْضي السُّنونُ تَجُرُّ بَعْضَها بَعْضًا ونَحْنُ لاهونَ.. قيلَ: « لَمّا أتى ملَكُ الموتُ سَيِّدَنا نوحَ ليقْبِضَ روحَهُ قالَ:

-يا نوح كَمْ عِشْتَ في الدُنْيا؟ قالَ: ثَلاثمائَةٍ قَبلَ أَن أُبعثَ، وأَلفَ سنَةٍ إلّا خَمْسينَ عامًا في قَومي، وثَلاثمَائَةِ سَنَةٍ وخَمْسينَ بَعْدَ الطّوفانِ..

قالَ مَلَكُ المَوتِ:

فَكَيفَ وجَدْتَ الدُّنيا؟

قالَ نوح:

مِثْلَ دارٍ لَها بابانِ دَخَلْتُ من هذا وخَرَجْتُ من هذا «! .....

فَامْتَعَضَ قَليلاً، ولكِنَّهُ عادَ فَأَقْنَعَ نَفْسَهُ بِأَنَّ أَفْكارَهُ صَحيحَةٌ وتَقَلُّباتِهِ النَّفْسِيَّةَ سَوِيَّةٌ.. فَلا غَرْوَى إذا نَقَلَتْهُ الذِّكْرَياتُ الى عالَمٍ كانَ لَهُ.. كانَ في قَبْضَتِهِ ..! والآنَ هو في عالَمٍ ليسَ

لَهُ، وشَبابُهُ ليسَ مَعَهُ ..... كَتَبَ الأَديبُ ميخائل نُعَيمة، عندَ بُلوغِهِ السَّبْعين كِتابَهُ الهَامَّ (سَبْعون) كَم كانَ زاخِرًا! وكم كانَ الكاتِبُ مِعْطاءً! وأَنْتَ ماذا أَعْطَيتَ؟ العَصافيرُ تُعْطي تَغْريدَها والفَراشاتُ أَلْوانَها والأَزاهيرُ أَريجَها.... وأَنْت! أَنْتَ! ماذا أَعْطَيتَ؟!

البَرْدُ، رغمَ الوِجاقِ والعَباءَةِ، هَدَّأَ من ثَورَةِ روحِهِ المُتْعَبَةِ.. تَساءَلَ من جَديد: -لو وَجَدَ (جلجامش) زَهْرَةَ الحَياةِ ماذا كانَ سَيَفْعَلُ في عُمْرٍ امْتَدَّ آلافَ السّنين؟! وهلْ كانَ سَيُدْرِكُ أَنَّ أَوَّلَهُ شَقاءٌ وآخِرَهُ شَقاءٌ! وماذا سَيَقولُ لو رَكِبَ الطَّيّارَةَ وهاتَفَ أَصْدِقاءَهُ بِ (الآي فون)...! تَبَسَّمَ وتَرَحَّمَ على أُمِّ المُؤْمِنين عائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْها.. كانَتْ على فِراشِ الموتِ.. دَخَلَ عَلَيها ابن عَبّاس فَقالَ:

-يا أُمّاهُ! ما بَينَكِ وبَينَ أَنْ تَلْتَقي مُحَمَّدًا والأَحِبَّةَ إلّا أَنْ يُفارِقَ روحُكِ الجَسَدَ فَأَبْشِري..

وراحَ يُثْني ويَذْكُرُ فَضْلَها، فَقالَتْ:

-دَعْني مِنْكَ ومن تَزْكِيَتِكَ، فَوَاللّهِ لَوَدِدْتُ لو كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا...

وعادَ لِيَسْأَلَ:

-ما الّذي دَفَعَ تمَيمَ بن مُقْبل لِيَقولَ:

ما أَطْيَبَ العَيشَ لو أَنَّ الفتى حَجَرٌ

تَنْبو الحَوادِثُ عَنْهُ وهْوَ مَلْمومُ

واعتَقَدَ أَنَّهُ ارْتاحَ لِما اسْتَعادَ من أَفْكارٍ.. وفَكَّرَ: ما الإنْسانُ؟ ما القَديمُ؟ ما الجَديدُ؟ ما الخَيرُ؟ ما الشَّرُّ؟ ما الحِكْمَةُ؟ ما الجُنونُ؟ ما التَّفاؤُلُ؟ ما التَّشاؤمُ؟ ما الكَراهِيَةُ؟ ما الحُبُّ؟ ما العَطَاءُ؟ ما الشَّبابُ؟ ما الشَّيخوخَةُ؟ ما الموتُ؟ ما.. ما...!

هَمْسٌ يَأْتيهَ لا يَدْري من أَينَ يَقول:

-أَنا الحَياةُ، وأَنْتَ ضَيفي.. فَكُنْ ضَيْفًا مُؤَدَّبًا...!

قُلْتُ:

ولكِنَّني لَسْتُ تمَيمَ بن مُقْبِل..

قالَتْ:

-اشْرَبْ، إذًا، كَأْسَ مُرِّكَ بِيَدَيكَ.. وقَبْلَ أَنْ تَأْخُذَني سِنَةٌ من نومٍ، اعتَقَدْتُ أَنَّني عِشْتُ مُقْبِلًا على الحَياةِ وأَنَّني شَرِبْتُ كَأْسي فَوَجَدْتُهُ حُلْوًا.....!

هِنْد..

اتَّكَأَتْ على حافةِ شَبّاكِ غُرْفَتِها المُطِلِّ على مَنْظَرٍ قَرَوِيٍّ خَلّابٍ.. جَبَلٌ شامِخٌ بِخُضْرَتِهِ.. سَماءٌ تَيّاهَةٌ بِزُرْقَتِها.. أَراضٍ لا هي سَهْلِيَّةٌ ولا هي جَبَلِيَّةٌ إنمَّا هي جَليلِيَّةٌ بِامْتِيازٍ؛ تُبْهِرُ العَينَ بِلَونِها البُنِّيِّ، فهي محروثَةٌ لِاسْتِقْبالِ الوَسْمِيِّ..

وأَمّا ما يُرى في المَدَى القَريبِ، فَالمارَّةُ في ذَهابٍ وفي إيابٍ.. حَرَكَةُ سَيّاراتٍ تَنْشَطُ.. صِياحُ ديكٍ آتٍ من بَعيدٍ.. صورَةٌ لِقَرْيَةٍ أَخَذَتْها المَدَنِيَّةُ شَوطًا، وتَرَكَتْها لا هي قَرْيَةٌ ولا هي مَدينَةٌ..

-لا تَقِفي أَمامَ الشُّبّاكِ هكَذا يا زُهَيرَةُ...!

صَوتُ أُمِّها يَجْلِدُها مِنَ الخَلْفِ.. خَوفُ أُمِّها مِنَ القيلِ والقالِ هو ما يَجْعَلُها، رُبمَّا، تَعْتَرِضُ على وُقوفِها هُناكَ.. فَالوُقوفُ أَمامَ الشَّبابيك، بِأَعْرافِهِم، لا يَليقُ بِالفَتاةِ، جَميلَةً كانَتْ أَمْ دَميمَةً، حَتّى كَونُها طالِبَةً جامِعِيَّةً لا يَشْفَعُ لَها.. تَقولُ أُمُّها: الذَّهابُ الى الجامِعَةِ شَيءٌ، والوُقوفُ أَمامَ الشَّبابيكِ شَيءٌ آخَرُ.. ثُمَّ إنَّها أَجْمَلُ أَخَواتِها.. جَميلَةٌ بِكُلِّ مَقاييسِ الجَمالِ دونَ الخَوضِ بِالتَّفاصيلِ.. تَبَسَّمَتْ حينَ تَذَكَّرَتْ أَنَّ أُمَّها لم تَكُنْ تُريدُها أَنْ تَذْهَبَ الى الجامِعَةِ، فَتَعيشَ في قَلَقِ الأُمِّ الّتي تَنامُ في بَيتِها، وابْنَتُها تَنامُ خارِجَ البَيتِ بَعيدَةً عن ناظِرَيها..

-لا تِقفي أَمامَ الشُّبّاكِ يا زُهَيرَةُ!

مِسْكينَةٌ أُمِّي.. قالَتْها في سِرِّها.. لا تُريدُ أَنْ تُصَدِّقَ أَنَّ الحَياةَ تُبَدِّلُ أَبْناءَها.. لا تُريدُ أَنْ تَعي أَنَّ حَوّاءَ قد خَرَجَتْ معَ آدَمَ عارِيَةً إلّا من وَرَقَةِ تينٍ، وعامَتْ دُهورًا في بُحورٍ من دَيجور، والآنَ تَسْبَحُ في بُحورٍ من نور.. أُمُّها لا تُريدُ أَنْ تُصَدِّقَ أَيضًا، أَنَّ (الآي فون) يَفْعَلُ فِعْلَهُ أَكانَتِ البِنْتُ خارِجَ البَيتِ أَمْ داخِلَهُ!!..... وأَنا أَنْتَظِرُ العَودَةَ من بَيتِ الطّالِباتِ في الجامِعَةِ لِأَرْتاحَ من المُحاضَراتِ ومن نَظَراتِ المُحاضِرينَ – بَلْهَ الطُّلّابَ – وأَقِفَ هذِهِ الوَقْفَةَ لِأَعُبَّ بَراءَةَ الطَّبيعَةِ عَبًّا!

نِداءُ أُمِّها لِلْمَرَّةِ الثّانيَةِ جَعَلَها، رغمَ تَفَهُّمِها لَها، تَمْتَعِضُ بَعْضَ الشَّيءِ.. وفَكَّرَتْ: لو كانَ الواقِفُ أَخاها فَهل كانَتْ سَتَنْهَرُهُ كما تَفْعَلُ مَعَها؟! لا يَهُمُّ! هَمَسَتْ في سِرِّها.. أَلَيسَ هو آدَمَ وأَنْتِ حَوّاءُ؟! بَلى...أَنْتِ يا حَوّاءُ الجانِحَةُ الجانِيَةُ دائِمًا وهو السَّوِيُّ المَجْنِيُّ عَلَيهِ دائِمًا ..... تَقولُ الصُّغْرى من بَناتِ (نوح) لِأُخْتِها:

-«أَبونا قَدْ شاخَ ولَيسَ في الأَرضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَينا كَعادَةِ كُلِّ الأَرضِ هَلُمَّ نَسْقي أَبانا خَمْرًا ونَضْطَجِعُ مَعَهُ فَنُحْيي من أَبينا نَسْلًا»

..... وقالَتْ لَهُ في كِتابِ أَلْفِ لَيلَةٍ ولَيلَةِ:

«.... وأَيضًا عندي دائمًا الخُبْزُ مَخْبوز، والماءُ في الكوز، وما أُريدُ مِنْكَ إلّا أَنْ تَعْمَلَ مَعي كَما يَعْمَلُ الدّيك. فَقُلْتُ لَها:

- ما الّذي يَعْمَلُهُ الدّيك؟

فَضَحِكَتْ وصَفَّقَتْ بِيَدِها ووقَعَتْ على قَفاها من شِدَّةِ الضَّحِكِ، ثُمَّ إنَّها قَعَدَتْ وقالَتْ لي:

-أَما تَعْرِفُ صَنْعَةَ الدّيك؟ فَقُلْتُ لَها:

-واللّهِ ما أَعْرِفُ صَنْعَةَ الدّيك!

قالَت:

-صَنْعَةُ الدّيكِ أَنْ تَأْكُلَ وتَشْرَبَ وتَنْكَح...

فَخَجِلْتُ من كَلامِها ثُمَّ إنِّي قُلْتُ:

- أَهذهِ صَنْعَةُ الدّيك؟

قالَتْ:

نَعَمْ، وما أُريدُكَ الآنَ إلّا أَنْ تَشُدَّ وَسَطَكَ وتُقَوّي عَزيمَتَكَ وتَنْكَح....

..... وذَكَرَ المَسْعوديّ أَنَّهُ كانَ لِلْخَليفَةِ العَبّاسِيِّ المُتَوَكِّلِ على اللّهِ أَرْبَعَةُ آلافِ جارِيَةٍ وَطِئَهُنَّ جَميعًا!

وأَحَسَّتْ أَنَّها تَغْرقُ في بَحْرٍ غَيرِ بَحْرِ التّاريخِ العَكِرِ هذا! إنَّهُ بَحْرٌ من غِسْلين.... وتَهَيَّأَ لَها أَنَّها بَصَقَتْ بَصْقَةً بِلا هَدَفٍ.. وصَوتُ أُمِّها لا يَرْحَمُ..

-مَلْعونٌ أَبو الشَّبابيكِ يا زُهَيرَة!

تَقولُ أُمُّها: شَرَفُ الفَتاةِ زُجاجٌ إذا انكَسَرَ لا يَنْجَبِرُ! وتَقولُ هي: وهلْ هُناكَ شَرَفٌ يَنْجَبِرُ وآخَرُ لا يَنْجَبِرُ؟ قالَ الرَّسولُ (ص) « ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنينَ « فَرَدَّتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ، أُمُّ مُعاوِيَةَ، وكانَتْ تُبايِعُهُ « وهَلْ تَزْني الحُرَّةُ وتَسْرقُ؟! .... وارْتاحَتْ عِنْدَما تَذَكَّرَتْ قَولَ هِنْد.. آهٍ هِند.. هنْدُ يا هِنْدُ...!! أَينَ أَنْتِ يا هِنْد.....!؟

وقَبْلَ أَنْ تُغْلِقَ شُبّاكَها مَرَّ شابٌّ وَسيمٌ أَنيقٌ، نَظَرَ اليها وابْتَسَمَ.. فَابْتَسَمَتْ.. ابْتَسَمَتْ بِدافِعِ الإِتِكيتْ.. تُرى بِأَيِّ دافِعٍ ابْتَسَمَ هوَ...!؟

يوريكا.. !

هيَ جَميلةٌ.. واثِقَةٌ من جَمالِها.. هيَ واعِيةٌ.. فَخورَةٌ بِوَعْيِها.. مُتَعَلِّمَةٌ زادَها العِلْمُ جَمالًا ووَعْيًا.. لكِنَّها تُحِسُّ أَنَّ زاويةً ما مُظْلِمَةٌ في صدْرِها.. لَعَلَّ حِواراتِها مَعَ نَفْسِها هي السَّبَبُ! حِواراتٌ قاسِيَةٌ الى حَدِّ جَلْدِ الذَاتِ أَحيانًا... تُعيدُ حِساباتِها مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ... جَميلَةٌ.. مُتَعَلِّمَةٌ.. تَقودُ سَيّارَتَها لِوَحْدِها إِلى عَمَلِها.. وهُناكَ في عَمَلِها تَخْتَلِطُ بِعامِلينَ وعامِلاتٍ طَوالَ ساعاتِ عَمَلِها.. هي ليسَتْ قَعيدَةً، فَلِمَ هذهِ الزّاوِيَةُ المُظْلِمَةُ إِذًا في صَدْرِها؟!

لَعَلَّ وَعْيَها هو السَّبَبُ في أَنْ تَعيشَ في قَلَقٍ دائِمٍ.. قَلَقِ الّتي تَكْفُرُ بِحَياةٍ ثَلاثَةُ أَرباعِها «نَعَمْ» والرُّبْعُ المُتَبَقّي تَرَدُّدٌ بينَ «لا» و «نَعَمْ». زَفَرَتْ زَفْرَةً حارَّةً لم تَسْتَطِعْ تَحْديدَ مَصْدَرِها.. أَهُوَ الغَضَبُ؟ أَهوَ القَرَفُ؟ أَو لَعَلَّهُ ضَعْفُ حَوّاءَ المُتَوارِثُ جيلاً عن جيلٍ يَطْحَنُ الفَتاةَ وُجوبًا ومَجازًا...!

وهَمَسَتْ الى ذاتِها: هلْ أَنا حُرَّةٌ؟! وجاءَ سُؤالُها كَآهَةِ مَريضٍ أَعْياهُ مَرَضٌ عُضالٌ.. مُنْذُ صِغَرِها تَرى حُرِّيَّةَ أَخيها تَخْتَلِفُ عن حُرِّيَّتِها.. حريَّةُ طائِرٍ طَليقٍ تَخْتَلِفُ عن حُرِّيَّةِ طائِرٍ مَشْدودٍ من ساقِهِ بِخَيْطٍ مَهْما امْتَدَّ الخَيْطُ وطالَ..

نِساءُ القَرْيَةِ يُجْمِعْنَ على أَنَّ فَتاةَ اليومِ تَعيشُ في مَهْدِ

عيسى لا كَما عِشْنَ هُنَّ؛ تَبْتَسِمُ لِهذِهِ المُقارَنَةِ السّاذَجَةِ.. أَلَيسَ منَ العَدْلِ أَنْ تُجْرَى المُقارَنَةُ مَعَ ما سَيَأْتي، لا مَعَ ما قد مَضى! ثَمَّ ما شَكْلُ الحَياةِ في مَهْدِ عيسى هذا؟ وإذا كانَ المَقْصودُ المَسيحَ عليهِ السَّلامُ فَقَدْ قَضى حَياتَهُ شَقاءً في شَقاءٍ.. وأَيُّ مَهْدٍ هذا الّذي تَعيشُ فيهَ فَتاةُ اليومِ وهي المُذْنِبَةُ في مَحْكَمَةٍ بِدونِ دِفاعٍ، أَو سَماعِ أَقوالِ شُهودٍ، فَتُذْبَحُ كَما يُذْبَحُ خَروفُ العيد!! .... وتَعودُ لِتَسْأَلَ نَفْسَها: هلْ أَنا حُرَّةٌ؟! هلْ خُروجُها منَ البَيتِ إِلى الجامِعَةِ أَو إِلى العَمَلِ حُرِّيَّةٌ ؟! وهَلْ قِيادَتُها السَّيّارَةَ لِوَحْدِها حُرِّيَّةٌ؟! ولِتَكونَ صادِقَةً معَ نَفْسِها أَمامَ حَقيقَةٍ فَرَضَتْها الحَياةُ فَرْضًا تقولُ نَعَم. ولكِنْ بِوَعْيِها الَّذي يَتَّسِعُ ويَتَعَمَّقُ يَومًا بَعْدَ يومٍ تَرى حُرِّيَّتَها مَنْقوصَةً.. إِنَّها لا تَزالُ تَذْكُرُ ما أَخَذَتْهُ عن الكاتِبِ المِصْري المُحَبَّبِ لَدَيها (سَلامَة موسى) بِأَنَّ الفَتاةَ لا تَنْعَمُ بِحُرِّيَّتِها إِلّا إِذا أَصْبَحَتْ مُنْتِجَةً.. وها هي تَعْمَلُ ولا تُحِسُّ بِأَنَّها حُرَّةٌ! وتَمَنَّتْ لو كانَتْ فَراشَةً كَهذِهِ الّتي تَمُرُّ أَمامَها، لَها ذاكَ الفَضاءُ الرَّحبُ، تَلْهو كَيفَما تَشاءُ وتَحُطُّ حَيثُما تَشاءُ.. أُمْنِيَّةٌ غَريبَةٌ صَعْبَةُ المَنالِ أَكَّدَتْ لَها أَنَّها تَعيشُ معَ آدَمَ جارِيَةً تَخْدِمُهُ أَوَّلاً، ووِعاءً يُنْتِجُ لَهُ نَسْلًا!!

كانَتْ كُلَّما أَخَذَها تَفْكيرُها إِلى أَبْعَدَ كُلَّما اقْتَرَبَتْ فَظاعَةُ

الصّورَةِ الّتي ارْتَسَمَتْ في خيالِها أَكْثَرَ.. يا اللّه!! إلى مَتى تَظَلُّ حَوَّاءُ تُؤْكَلُ ويَجِدونَ لِآكِلِها عُذْرَاً؟! إلى مَتى تَظَلُّ تَشُمُّ رائِحَةَ الحُرّيَّةِ الَّتي يَتَحَدَّثونَ عَنْها من بَعيد؟! ... قالَ لَهُ أَبوهُ:

-كُرَّ يا عَنترَة!

فَقالَ:

-العَبْدُ لا يُحْسِنُ الكَرَّ بَلْ يُحْسِنُ الحِلابَ والصَّر..

فَقالَ:

كُرَّ وَأَنْتَ حُرّ!!

... ولكِنَّ المَهاتما غانْدي لَمْ يَكُرَّ بَلْ كَرُّوا هُمْ عَلَيْهِ، وانْتَزَعَ حُرِّيَّتَهُ انْتِزاعًا!! وأَنْتِ على مَنْ سوفَ تَكُرِّينَ؟ وإنْ لَمْ تَكُرِّي فَمَنْ يَكُرُّ عَلَيْكِ؟ هَلِ النّاسُ رِجالًا ونِساءً أَم التّاريخُ.. أَمْ أَنْتِ نَفْسُكِ تَكُرّينَ على نَفْسِكِ؟! ولِلَحْظَةٍ قَرَّرَتْ أَنْ تَخْرُجَ من دائِرَةِ مُصارَعَةِ (السّومو) بِإرادَتِها، مُنْتَصِرَةً على تَرَدُّدِها.. سَتَكونُ مُضْغَةً في أَفْواهٍ لا تَرْحَمُ.. أَو رُبمَّا سَتَكونُ عُنُقًا تَحْتَ سِكّينٍ! لا يَهُمُّ ما دامَتْ تُؤْمِنُ بِوُضوحِ دَرْبِها وسَلامَةِ خُطُواتِها..

غَدًا سَتَلْتَقي شابًّا ظَريفًا تَعَرَّفَتْ عَلَيهِ مُؤَخَّرًا وأَحَبَّتْهُ..

ولكِنَّها الآنَ وبَعْدَ رِحْلَتِها لِاسْتِكْشافِ ذاتِها وَجَدَتْ أَنَّها تَعْتَقِدُ أَنَّها تُحِبُّهُ.. وفَطِنَتْ فَجْأَةً بِأَنَّ طَلَباتِهِ خِلالَ تَعارُفِهما كانَتْ مُسْتَجابَةً.. كانَتْ تَفْعَلُ ذلكَ بِتِلْقائِيَّةٍ، حَتّى عِنْدَما كانَ لا يُلَبّي لَها الكَثيرَ من طَلَباتِها لم تَكُنْ تَظُنُّ بِهِ ظَنَّ السّوءِ.. رَفَعَتْ سَمّاعَةَ التِّلِفون.. اعْتَذَرَتْ لهُ عن لِقاءِ الغَدِ، وعَن أَيِّ لِقاءٍ بَعْدَ ذلكَ.. أَحَسَّتْ أَنَّ حَبْلَها السُّرِّيَّ يُقَصُّ لِلْمَرَّةِ الثّانِيةِ، وأَنَّها لِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَتَنَفَّسُ من رئَتَيها هي.. وخُيِّلَ لَها أَنَّها تَهْتِفُ يوريكا... يوريكا!

تَعاطُفٌ..

رَأَى الحَمَلُ الوَديعُ والِدَهُ الكَبْشَ الوَقورَ مَهْمومًا، فَسَأَلَهُ:

-ما لي أَراكَ يا أَبَتِ مَهْمومًا مُقَطِّبَ الوَجْهِ، وكُنْتَ فيما مَضى مِمْراحًا طَليقَ المُحَيّا؟

فَأَجابَ والِدُهُ:

-لا تَمْلأْ رَأْسَكَ الصَّغيرَ بِهَذِهِ الأَسْئِلَةِ الثَّقيلَةِ الحَمْلِ يا وَلَدي! ما عَليكَ إلّا أَنْ تَتَمَتَّعَ بِحَياتِك قَدْرَ اسْتِطاعَتِك..

وَعِنْدَما لَمْ يَجِدْ في رَدِّ والِدِهِ جَوابًا مُرْضِيًا، قالَ:

-ولَكِنِّي بَدَأْتُ أَراكَ على غَيرِ عادَتِكَ كُلَّ يومٍ!

تَبَسَّمَ الوالِدُ لِصَغيرِهِ، وبَعْدَ أَنْ قَبَّلَهُ قُبْلَةَ الأَغنامِ لِبَعْضِها هَمَسَ في أُذُنِهِ:

-هكَذا خُلِقْنا يا صَغيري.. الكِبارُ وُلِدُوا لِيُفَكِّروا، والصِّغارُ وُلِدُوا لِيَلْعَبُوا وَيَسْعَدوا!

وَراحَ الصَّغيرُ يَتَقافَزُ في الحَوشِ الرَّحْبِ المُعَدِّ لِلْكِباشِ والحُمْلانِ ؛ أَمَّا الكَبيرُ فَعادَ الى صَمْتِهِ يَجْتَرُّ هُمومَهُ.. كَيفَ لا يَعودُ الى وُجومَهِ وَقَدْ سَمِعَهُم يَقولونَ:

-اقْتَرَبَ العيدُ وها هِيَ ذي أُضْحِيَّتُنا قَدِ اكتَنَزَتْ لَحْمًا وشَحْمًا ... وانْتَقَلَ تَفْكيرُهُ نَحْوَ صَغيرِهِ الَّذي سَيُسَمَّنُ لعيدٍ آخَرَ قادِمٍ،

فَشَهَقَ وبَكى ولكِنْ بِغَيرِ دُموعٍ ، فالدُّموعُ لا تَليقُ بِكَبْشٍ ذي قَرْنَينِ مَجْدولَينِ !

أَعادوَا الحَمَلَ بَعْدَ أَنْ أَبْعَدوهُ عنْ حوشِهِ أَيّامًا، وعِنْدَما لَمْ يَجِدْ والِدَهُ بَكى بُكاءً مُرًّا ، وأَصْبَحَ لِزامًا عَلَيهِ أَنْ يَعْتادَ حَياةَ اليُتْمِ بِفَقْدِ الأَبِ وغيابِ الأُمِّ الّتى اسْتَيقَظَ ذاتَ صَباحٍ مُغْطِشٍ على بُكائِها وهيَ تُوَدِّعُ والِدَهُ ، وتوصيهِ بِهِ وِصيَّةَ المَحْروقَةِ بِنارِ إبْعادِها عَنْ صَغيرِها .. فَقَدْ أَمَرَ السَّيِّدُ بِإعادَتِها الى بَني غَنَمٍ قَوْمِها، لَيسَ مَحَبَّةً مِنْهُ أَو رَحْمَةً بَلْ لِأَنَّها نَعْجَةٌ لا تَزالُ شابَّةً وَظيفَتُها الحَمْلُ والإنجاب. أَمَّا هُما فَقَدْ ظَلّا يَنْتَظِرانِ مَصيرَهــما المَحْتوم..... قالَ:.... وكَلَّمَ إسْحَقُ إبْرَهيمَ أَباهُ وقالَ يا أَبي فقالَ هَأَنَذا يا ابْني فَقالَ هُوَذا النّارُ والحَطَبُ ولكنْ أَينَ الخَروفُ لِلْمُحْرَقَةِ..... وقالَ:... ثُمَّ مَدَّ إبرَهيمُ يَدَهُ وأَخَذَ السِّكّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ..... وقالَ:.... فَناداهُ مَلاكُ الرَّبِّ منَ السَّماءِ وقالَ..... لاتَمُدَّ يَدَكَ إِلى الغُلامِ ولا تَفْعَلْ بهِ شَيئًا.... وقالَ :... فَرَفَعَ ابرَهيمُ عَينَيهِ ونَظَرَ وإذا كَبْشٌ وراءَهُ.

لَمْ يَأْخُذِ الصَّغيرُ كَثيرَ وَقْتٍ كي يُدْرِكَ ما كانَ يَعْتَري والِدَهُ من حالاتِ الوُجومِ المُسْتَطيلَةِ في أَيّامِهِ الأَخيرَةِ . وأَدْرَكَ أَيضًا لِماذا يَعْتَنونَ بِهِ، هوَ، كُلَّ هذا الاعْتِناءِ، فالطَّعامُ وَفيرٌ، والماءُ

نَميرٌ، وما عَلَيهِ إلّا أَنْ يَأْكُلَ ويَشْرَبَ ويَسْمَنَ.. وأَقْنَعَ نَفْسَهُ أَخيرًا أَنْ يَعيشَ أَيّامَهُ بِدونِ تَفْكيرٍ، مُتَمَنِّيًا لِنَفْسِهِ عُمْرًا مَديدًا..!

وفي يَومٍ ، جاءَ السَّيِّدُ مَعَ سَيِّدٍ آخَرَ بِرِفْقَةِ زَوْجَتِهِ وراحوا يَنْظُرونَ الى الحَمَلِ الصَّغيرِ الوَديعِ نَظَراتٍ شَرِهَةٍ.. وخَمَّنَ المَوقِفَ مُعْتَمِدًا على غَريزَتِهِ الّتي سَلَّحَهُ اللّهُ بِها كي تُنْذِرَهُ بِالخَطَرِ قَبْلَ وُقوعِهِ.. إنَّهُ سَيَنْتَقِلُ إلى بَيتِ السَّيِّدِ القادِمِ بِرِفْقَةِ زَوجَتِهِ. فَكَّرَ: سَيِّدٌ بَدَلَ سَيِّدٍ، وحَوشٌ بَدَلَ حَوشٍ، وطَعامٌ وشَرابٌ، لا فَرقَ...!! المُهِمُّ أَنْ يَعيشَ حَياةً سَعيدَةً مَديدَةً ، وبَعْدَها يُلاقي وَجْهَ رَبِّهِ راضِيًا مَرْضِيًّا .

وفي الطَّريقِ قالَتْ الزَّوجَةُ بِدَلَعٍ يَفْضَحُ شَهِيَّتَها المُنْدَلِقَةَ تُخاطِبُ زَوجَها الّذي يَهْوى دَلَعَها هَذا فَلا يَمْنَعُ عَنْها رَغْبَةً

-إسْمَعْ يا عَزيزي! أنا لا أُحِبُّ لَحْمَ الكِباشِ الهَرِمَةِ، لَحْمُ هذا الحَمَلِ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يكونَ طَريئًا ولَذيذًا....!!

غُصْنُ الفَيجَنِ..

قَصَفَ غُصْنَ الفَيجَنِ وهْوَ يَعْلَمُ أنَّ قَصْفَ الغُصْنِ، أَوِ الزَّهْرَةِ، هو الموتُ المُحَتَّمُ لَهُما.. وقَدْ يَجيءُ القَصْفُ سَريعًا رَحيمًا إِنْ تَمَّ بِمِقَصٍّ أَو بِسِكّينٍ حادَّةٍ؛ لكِنَّ عَلِيًّا أَخَذَهُ بِجُمْعِ كَفِّهِ ونَتَرَهُ نَتْرًا.. والقَصُّ أَو القَصْفُ أَو النَّتْرُ لِلْغُصْنِ تمَامًا كَالبَتْرِ لِعُضْوٍ من أَعْضاءِ الجِسْمِ، لِإِنْسانٍ كانَ هذا الجِسْمُ أَمْ لِحَيَوانٍ.. في الغُصْنِ تَسيلُ الماوِيَّةُ فلا نَلْتَفِتُ ولا نَتَأَثَرُ حَتّى لو سالَ مِدْرارًا مَعَ أَنَّهُ دَمُ الغُصْنِ المُراقِ.. فَالدَّمُ في أَعْرافِنا أَحْمَرُ، الأَحْمَرُ فَقَطْ هوَ الّذي يُثيرُ الثَّورَ الكامِنَ فينا! وهذا دَمٌ بِلا لَونٍ! فَلا يُحَرِّكُ فينا فَريصَةً، مَعَ أَنَّهُ يَحْمِلُ ما يَحْمِلُهُ الدَّمُ الأَحْمَرُ مِنْ أَعْباءِ مَدِّ الأَعْضاءِ بِالحَياةِ.

وقَصْفُ الغُصْنِ يَحْمِلُ تَفْسيرَينِ: ظاهِريًّا وباطِنِيًّا.. أَمَّا الظّاهِرِيُّ فَهْوَ ما تَراهُ العَينُ، وأَمّا الباطِنِيُّ فَهْوَ ما يَراهُ العَقْلُ.. وإِذا اكْتَفَتِ العَينُ بِما رَأَتْهُ، فالعَقْلُ لا يَقِفُ عِنْدَ ذلِكَ.. بَلْ لا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، ويَرى في القَصْفِ خُروجًا عَن كَونِهِ عَمَلًا عادِيًّا بَسيطًا لِيُصْبِحَ نَهْجَ حَياةٍ وسُلوكًا عِنْدَ بَني البَشَرِ فَيَبْتُرونَ العُضْوَ مِنَ الإِنْسانِ ومِنَ الحَيَوانِ مِثْلَما يَقْصِفونَ الغُصْنَ.. وقَدْ يَتَعَدَّى الأَمْرُ الى قَصْفِ قَرْيَةٍ أَو مَدينَةٍ.. ولا عَجَبَ إِنْ سَمِعْنا أَو قَرَأْنا أَو شاهَدْنا على الشّاشَةِ الصَّغيرَةِ

جِنرَالًا يَترَحَّمُ على طائِرٍ نَفَقَ بِفِعْلِ رَصاصَةٍ طائِشَةٍ، وفي ذاتِ اللَّحْظَةِ يَأْمُرُ مِدْفَعِيَّتَهُ بِقَصْفِ قَرْيَةٍ أَو مَدينَةٍ عامِرَةٍ، يَفْعَلُ هذا وبَسْمَتُهُ تَمْتَدُّ مِنْ شَحْمَةِ الأُذُنِ الى شَحْمَةِ الأُذُنِ..

هَلْ لِقَصْفِ غُصْنٍ ما مَدْلولٌ إِيجابيٌّ؟! لا شَكَّ! فَقَصْفُ غُصْنِ غارٍ يُذَكِّرُنا بِآلِهَةِ الأُولِمْبِ وهُمْ يُكَرِّمُونَ أَبْطالَهُم الفائِزينَ بِأَكاليلَ مِنْ غارٍ.. وقَصْفُ غُصْنِ الزَّيْتونِ يَحْمِلُنا الى سَيِّدِنا نوح لاعِنينَ الغُرابَ لِإِخْفاقِهِ في مُهِمَّتِهِ، وشاكِرينَ الحَمامَةَ لِنَجاحِها في جَلْبِ الطُّمَأْنينَةِ والسَّلامِ إِلى قُلوبِ البائِسينَ على ظَهْرِ سَفينَةٍ مُحاصَرَةٍ بِسَطْوَةِ البَحْرِ.. ولَولاها لانْقَرَضَ الجِنْسُ البَشَرِيُّ، ولَما كانَ لَنا وُجودٌ الآنَ.. وقَصْفُ غُصْنِ اللَّيمونِ يُعيدُ ابْنَ يافا المُشَرَّدَ الى حِضْنِها.أَجَلْ ! الى حِضْنِها ولَو لِلَحْظَةٍ واحِدَةٍ! فالعَودَةُ خارِجَ الحُلُمِ أَصْبَحَتْ حِبْرًا على وَرَقٍ في دُرْجٍ لا يَفْتَحُهُ أَحَدٌ.. وغُصْنُ الفَيجَنِ الَّذي قَصَفَهُ عَلِيٌّ أَعادَهُ، إِلى طُفولَتِهِ لِيَرَى والِدَتَهُ تُعِدُّ زَيتونَها الأَسْوَدَ المُمَلَّحَ الّذي لا تَكْتَمِلُ نَكْهَتُهُ بِدونِ غَصْنِ الفَيجَنِ.. كانَ البَيتُ يَعْبَقُ بِرائِحَةِ الفَيجَنِ المُمَيَّزَةِ.. وكانَ والِدُهُ يَعُبُّ الهَواءَ ويَقولُ:

-بَيتُ الفِلَسْطينِيِّ بلا الفَيجَنِ كَخابِيَةٍ بِلا زَيتِ زَيتونٍ!

ورائِحَةُ الفَيجَنِ لا تُشْبِهُ أَيَّةَ رائِحَةٍ لِزَهْرَةٍ مِنَ الزُّهورِ، على كُثْرَتِها وتَنَوُّعِها، في رُبى الجَليلِ.. وهي لَيسَتْ طِيبًا تَتَطَيَّبُ بِهِ المَليحاتُ.. إِنَّها أَذْكى رائِحَةً وأَحَدُّ نَفاذًا مِنْ أَيِّ عِطْرٍ قَذَفَتْهُ التِّكْنُولوجيا بَعْدَ أَلْفِ تَجْرِبَةٍ..

وها هو الآنَ يَجْلِسُ على حَجَرٍ فَوقَ رُكامٍ كانَ بَيتًا شَهِدَ لَحْظَةَ وِلادَتِهِ، وأَيّامَ طُفولَتِهِ وسِني صِباهُ الأولى.. لَقَدْ دَفَنَ جِنْسِيَّتَهُ الفِلَسْطينِيَّةَ في قَلْبِهِ ودَخَلَ البِلادَ بِجِنْسِيَّتِهِ الفِنْلَنْدِيَّةِ لِيَزورَ نِثارَ قَرْيَةٍ ويَجْلِسَ على رُكامِ بَيتٍ كانَ مَأْهولًا، فَتَذَكَّرَ وتَذَكَّرَ وبَكى وبَكى ولَعَنَ ولَعَنَ وغَضِبَ وثارَ..... ووَضَعَ غُصْنَ الفيجَنِ الّذي قَصَفَهُ – مَعْذورًا- بَينَ صَفَحاتِ كِتابٍ كانَ في يَدِهِ وَ... وَغابَ...!

روحٌ مُتْعَبَةٌ..

ما كانَ لِيُصَدِّقَ أَنَّهُ قد بَلَغَ منَ العُمْرِ ما بَلَغَ لَولا بَناتُهُ وأَبْناؤُهُ والأَحْفادُ الَّذينَ اجْتَمَعوا حَولَ كَعْكَةٍ شَهِيَّةٍ، لِيُطْفِئُوا شَمْعَتَهُ السَّبْعينَ مُغَنّينَ مُبارِكينَ.. حَتّى الكَعْكَةُ الّتي حُرِمَ مِنْها مُؤَخَّرًا لارْتِفاعِ السُّكَّرِ عِنْدَهُ، ساهَمَتْ مُساهَمَةً كُبْرى في تَذْكيرِهِ بِأَنَّ الأَيّامَ لَيسَتْ هيَ الأَيّام.. لكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ تُطْفَأَ الشَّمْعَةُ سَأَلَ: أَينَ الشَّمْعَةُ الثّانِيَةُ؟ فَقَد عَوَّدَ المُحْتَفِلينَ في أَعيادِ ميلادِهِ أَنْ يُطْفِئُوا شَمْعَتَينِ: واحِدَةً من أَجْلِهِ وواحِدَةً أُخْرى من أَجْلِ زَوجَتِهِ. عَلَّقَتْ إِحْدى بَناتِهِ: هذا هو الحُبُّ! فَقالَ: لِمَ لا تَقولينَ هَذِهِ هيَ المَحَبَّةُ! الحُبُّ يا ابْنَتي نارٌ قد تَخْمَدُ، وأَمّا المَحَبَّةُ فَنارُها مَجوسِيَّةٌ لا يَخْمَدُ لها لَهيبٌ ... وبَينَما الجَمْعُ حَولَهُ في مَرَحٍ وفَرَحٍ، خاطَبَ نَفْسَهُ: كَبِرْتَ يا أَبا مَهْيوب! وراءَكَ رُكامُ سَنَواتٍ عِشْتَها طولًا وعَرضًا.. فماذا سَجَّلْتَ في دفْتَرِ حَسَناتِكَ من عَمَلٍ صالِحٍ؟ لَقَد بَنَيتَ وتَزَوَّجْتَ وأَنْجَبْتَ البَنينَ والبَناتِ ورَبَّيتَ وعَلَّمْتَ... ولكنَّ كُلَّ هذا لا يَخْرُجُ من دائِرَةِ ذاتِكَ.. لَقَد بَلَغْتَ السَّبْعينَ.. والسَّبْعونَ سِنٌّ مِفْصَلِيَّةٌ بَينَ سَنَواتٍ أَنْتَ أَكَلْتَها، وبَينَ سَنَواتٍ هيَ سَتَنْهَشُ ما تَبَقّى لَكَ من العُمْرِ! فاخْرُجْ الى الحَياةِ فاتِحًا لَها ذِراعَيكَ، واعْمَلْ صالِحًا.. ما أَجْمَلَ وأَعْدَلَ ما يَقولونَ..»

الحَسَناتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» .... ولكِنْ أَرْجوكَ لا تَعْتَمِدْ على ذلكَ كَثيرًا! بَلِ اعْمَلْ بِهَدْيِ حَديثٍ أَخْرَجَهُ ابنُ عَساكر: عنِ الرَّسولِ الكَريمِ صَلَواتُ اللهِ عَليهِ قالَ: على كُلِّ مُسْلِمٍ في كُلِّ يَومٍ صَدَقَةٌ: عِيادَتُكَ المَريضَ صَدَقَةٌ، وصَلاتُكَ على الجَنازَةِ صَدَقَةٌ، وإماطَتُكَ (إبْعادُكَ) الأَذى عنِ الطُّرُقِ صَدَقَةٌ، وعَونُكَ الضّعيفَ صَدَقَةٌ.... وبَعْدَ أَنِ انْفَضَّ جَمْعُ المُحْتَفِلينَ، وذَهَبَ الى سَريرِهِ، عاهَدَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْرِقَ في النَّومِ أَنْ يَنْهَضَ في الصَّباحِ، ويَزورَ كُلَّ الَّذينَ كانَتْ بَينَهُ وبَينَهُم جَفْوَةٌ.

بِدايَةٌ سَليمَةٌ.. قالَها بِلَهْجَةِ مَنْ ضَرَبَ فَأَصابَ.. وفي الصَّباحِ خَطَرَ بِبالِهِ أَنْ يَتَجَوَّلَ قَليلاً في طُرُقاتِ القَرْيَةِ الّتي ما ابْتَعَدَ عَنْها إلاّ وشَدَهُ الحَنينُ اليها.. سارَ مُحَيِّيا المارّةَ، والجالِسينَ في الشُّرُفاتِ يَحْتَسونَ قَهْوَةَ الصَّباحِ فَيَرُدّونَ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْها، داعينَهُ لِارْتِشافِ القَهْوَةِ مَعَهُم.. وهَناكَ مَنِ انْتَبَهَ الى عُكّازَتِهِ الّتي في يَمينِهِ، فَقالَ بِقَلَقٍ صادِقٍ مُحَبَّبٍ:

سلامتك...! فَيَبْتَسِمُ رافِعًا العُكّازَةَ بِيَسارِهِ، قائِلًا: شُكْرًا! أَنا بِخَيرٍ.. هذِهِ لَيسَتْ بِسَبَبِ اعتِلال.. إنَّها من ضُروبِ الكَمال...!

تابَعَ طَريقَهُ.. مَرَّ بِبَيْتِ أَحَدِ أَتْرابِهِ.. رَحَلَ حامِلًا مَعَهُ

مَرَضًا خَبيثًا، وتاركًا وراءَهُ ذِكْرًا طَيِّبًا! لم يَكُنْ تِرْبَهُ فَقَطْ بَل كانَ أَحَدَ أَصْدِقائِهَ الأَوفِياءِ الأَذْكِياءِ.. وغالِبًا ما كانَ يَتَفَوَّقُ عَلَيهِ بِسُرْعَتِهِ في حَلِّ المَسائِلِ الحِسابِيَّةِ المُعَقَّدَةِ حينَ كانا صَغيرَينِ على مَقاعِدِ الدِّراسَةِ.. قَرَأَ الفاتِحَةَ على روحِهَ ونَفَضَ يَدَهُ يَمْنَةً ويَسْرَةً كَمَنْ يَنُشُّ ذُبابَةً مُزْعِجَةً.. أَو مَنْ يَدْري؟! لَعَلَّهُ يَنُشُّ مَلَكَ الموتِ الّذي لا يَكِلُّ ولا يَسْتَكينُ..

وَصَلَ السّاحَةَ العامَّةَ.. هذِهِ السّاحَةُ المُمَيَّزَةُ بِعَينِ مائِها وشَجَرَةِ توتِها الخالِدَتَينِ.. لَكَمْ لَعِبَ فيها صَبِيًّا، ونَبَضَ قَلْبُهُ نَبَضاتِ الحُبِّ الأُولى فيها شابًّا حينَ كانَ وأَتْرابَهُ، يَنْتَظِرونَ الصبايا الوارِداتِ كَالغَزالاتِ على العَينِ لِيَمْلأْنَ جِرارَهُنَ ماءً وقُلوبَهُم اشْتِياقًا! هذا حينَ كانَ التَّفْكيرُ بِوصولِ المِياهِ الى البُيوتِ أُمْنِيَّةً بَعيدَةَ المَنالِ.. وفي هذهِ السّاحَةِ أَيضًا كانَ يَقْتَرِبُ من مجَالِسِ شُيوخِ القَرْيَةِ يَسْتَرِقُ السَّمْعَ الى أَحاديثِهِم ... عابًّا حِكْمَةَ الحياةِ من مَعينِ تَجارِبِهم ... وابْتَسَمَ لِهذِهِ الذِكْرى الَّتي جاءَتْهُ من غَياهِبِ سَنَواتٍ مَضَتْ.. أَتْبَعَ ابتِسامَتَهُ تِلكَ بِضِحْكَةٍ خَرْساءَ. يَكادُ لا يُصَدِّقُ أَنَّ السّاحَةَ قَدْ أَقْفَرَتْ من مجالِسِ الشُّيوخِ، وأَنَّ (الفيس بُكْ) فَتَنَ عُقولَ الشَّبابِ، ولَمْ يَعُدْ لِحَديثِ كِبارِ السِّنِّ ما يَفْتِنُ!! لا بَل قد يَكونُ مادَّةً لِلتَّفَكُّهِ

ولِلتَّنَدُّرِ.. حاوَلَ أَن يُخادِعَ نَفْسَهُ فَيَعْزو ذلكَ الى ما يُعْرَفُ بِصِراعِ الأَجْيالِ.. لكِنَّ صِراعَ الأَجْيالِ كما يَفْهَمُهُ هو دَفْعٌ الى الأَمامِ لا شَدٌّ الى الوَراءِ! وتَرحَّمَ على جُبْران خَليل جُبْران حينَ قالَ: أَبْناؤُكُم لَيسوا لَكُم، أَبْناؤُكُمْ أَبْناءُ الحَياةِ!! ولكنْ لا...! لَعَلَّهُ أَرادَ أَنْ يَقولَ: أَبْناؤُكُمْ لَيسوا عَبيدًا لَكُمْ، ولَيسوا أَيضًا عَبيدَ فَوضى الحَياةِ.. وعادَ فَتَرَحَّمَ على نَفْسِهِ لِأَنَّهُ لَم يُعِدَّها لِزَمَنٍ أَصْبَحَ فيهِ الشَّيخُ شَيئًا انْتَهَتْ مُدَّةُ صَلاحِيَّتِهِ.. وضَحِكَ لِهذا الخاطِرِ.. ضَحِكَ كَثيرًا.. إذَنْ هُوَ وكَعْكَةُ عيدِ ميلادِهِ واحدٌ!!

كِلاهُما مُحَدَّدٌ بِتاريخِ انتِهاءِ صَلاحِيَّتِهِ معَ فارقٍ بَسيطٍ! فَالكَعْكَةُ تُؤْكَلُ قَبْلَ انْتِهاءِ صَلاحِيَّتِها.. وهو.. هل مِنْ آكِلٍ لهُ سِوى المَوتِ؟ لا... لَنْ يَشْغَلَ بالَهُ بِفَلْسَفَةِ الموتِ، فَقَدْ فَعَلَ ذلكَ قَبْلَهُ كَثيرونَ ولَم يَصِلوا الى نَتيجَةٍ مُحَدَّدَةٍ يَرْتاحونَ لَها ويُريحونَ بَها غَيرَهُم...!

أَنْهى مُهِمَّتَهُ الَّتي تَرَكَ بَيتَهُ من أَجْلِها.. حَقًّا كانَ في غايَةِ السَّعادَةِ بِما فَعَلَ.. وتَرَحَمَ على الكاتِبِ المِصْريِّ علي أَمين وهو يَقول: « يا رَبّ! أَعْطِني شَجاعَةَ الصَّفْحِ عَنِ الَذينَ أَخْطَأُوا في حَقّي، وشَجاعَةَ الاعْتِذارِ لِلَّذينَ أَخْطَأْتُ في حَقِّهم

« .. ولكنَّ خَواطِرَهُ الّتي كانَتْ ولا تَزالُ سَبَبًا في قَلَقِهِ الدّائِمِ عادَتْ تُساوِرُهُ من جَديدٍ...لا.. لَنْ يَكونَ مادَّةً لِلتَّنَدُّرِ.. لا.. ولَنْ يَكونَ مادَّةً قد انْتَهَى تاريخُ صَلاحِيَّتِها.. ولَنْ يَكْتَفي بَصَدَقَةٍ واحِدَةٍ في اليَوم لا..لا ... لَنْ يَكونَ مُجَرَّدَ عَجوزٍ عاجِزٍ يَتَرَحَّمونَ عَلَيهِ في بَيتِ عَجَزَةٍ في يَومٍ لا بُدَّ آتٍ..!! فَمِنَ الغَدِ سَيَطْرُقُ أَبوابَ المُؤَسَّساتِ الَّتي تَقْبَلُ مُتَطَوِّعينَ.. سَيَهَبُ نَفْسَهُ لِخَدَماتٍ قَدْ تُريحُ قَلْبًا موجَعًا، وتَرُدُّ بَهْجَةَ الحَياةِ لِروحٍ يائِسَةٍ مُعَذَّبَةٍ..

كانَ قَدْ وَصَلَ بَيتَهُ.. لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِتَعَبٍ أَو وَجَعٍ في الرُّكْبَتينِ.. كانَ رِضاهُ عَنْ نَفْسِهِ يَفوقُ كُلَّ تَعَبٍ أَو وَجَعٍ.. وراحَ يَصْعَدُ دَرَجاتِ بَيتِهِ.. وفَجْأَةً غَمَرَهُ شُعورٌ لَذيذٌ.. أَحَسَّ أَنَّهُ لا يَصْعَدُ دَرَجاتِ البَيتِ بل دَرَجاتِ سُلَّمٍ يوصِلُ الأَرضَ بِالسَّماءِ ...!

القَرارُ الصَّعْبُ..

أَكَلَ أَكْلًا دَسِمًا ونامَ.. عادَتُهُ بَعْدَ كُلِّ غَداءٍ.. لَيسَ مِنَ المُحَبَّذِ أَنْ يُفْرِطَ في الأَكْلِ، خاصَّةً في الدَّسِمِ مِنْهُ وقَدْ تَعَدّى السَّبْعينَ.. لا بَلْ يَدْري أَنَّهُ مِنَ الخُطورَةِ أَنْ يَفْعَلَ ذلكَ، ولكِنَّهُ يَفْعَلُهُ.. يَقولونَ إِنَّ كِبارَ السِّنِّ يَضْعُفونَ أَمامَ الأَكْلِ والنَّومِ...

-أَنا مَلَكُ المَوتِ، وقَدْ جِئْتُ لِأَحْمِلَكَ الى الّذينَ سَيُرْسِلونَكَ الى الجَنَّةِ أَو إِلى النّارِ!

تَفَرَّسَ الرَّجُلُ في مُحَدِّثِهِ، فَرَأَى مَلاكًا وَسيمًا لا تَبْدو عَلَيهِ عَلاماتُ القَسْوَةِ، تَشَجَّعَ وقالَ: هَلْ جِئْتَ لِتَحْرِمَني لَذَةَ السَّبْعينَ؟! يَقولونَ إِنَّ السَّنَواتِ العَشْرَ ما بَينَ السَّبْعينَ والثَّمانينَ مِنَ العُمْرِ كالدُّرَّةِ في التّاجِ... نَظَرَ مَلَكُ المَوتِ الى مُحَدِّثِهِ فَرَأَى مَخْلوقًا ضَعيفًا، قَدْ يَفْعَلُ أَيَّ شَيءٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطولَ عُمْرُهُ ساعَةً! قالَ مُشْفِقًا: سَأُعْتِقُكَ الآنَ شَرْطَ أَنْ تَتَنازَلَ عَنْ عُضْوٍ مِنْ أَعْضاءِ جَسَدِكَ يَكونُ عَلامَةَ الخُنُوعِ لي..

قالَ هذا واخْتَفى كَما تَخْتَفي حَمامَةٌ بَيضاءُ بَينَ السَّحابِ تارِكًا الرَّجُلَ في حَيرَةِ ما بَعْدَها حَيْرَةٌ.. فَأَيَّ عُضْوٍ سَوفَ يَخْتارُ؟ وكُلُّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضاءِ جَسَدِهِ عَزيزٌ على قَلْبِهِ.. وبَعْدَ أَنْ أَبْعَدَ فِكْرَةَ أَنْ يَتَنازَلَ عَنْ يَدٍ أَو رِجْلٍ، فَما عَلَيهِ الآنَ سِوى أَنْ يَخْتارَ عُضْوًا آخَرَ.. وفَكَّرَ لَو اختارَ أُذُنًا فَمَنْ سَيَضْمَنُ

لَهُ سَلامَةَ الأُذُنِ الأُخْرى إذا تَقَدَّمَ في السِّنِّ، وكَيفَ سَتَطيبُ الحَياةُ لَهُ بِدونِ سَماعِ بَيتِ عَتابا يُطْرِبُهُ، وبِدونِ أَرغولٍ يَهُزُّهُ؟! فَلْتَكُنِ العَينُ إذًا.. يَقولونَ إذا انْطَفَأَتِ إحْدى العَينَينِ تَقومُ الأُخْرى بِعَمَلِ الاثْنَتَينِ؛ لَكِنَّ هذا قَدْ يَكونُ مَضْمونًا في أَوائِلِ العُمْرِ لا في أَواخِرِهِ.. وأَيُّ مُصيبَةٍ سَتَحُلُّ بِهِ لَو تَنازَلَ عَنْ عَينٍ الآنَ وانْطَفَأَتِ الأُخْرى بَعْدَ حينٍ.. القراءَةُ والمُطالَعَةُ أَمْرُهُما سَهْلٌ بالاسْتِعانَةِ بقارئٍ.. ولكنْ كَيفَ سَيُمَتِّعُ نَفْسَهُ بِشُروقِ الشَّمْسِ وَغُروبِها؟ وما قيمَةُ الحَياةِ سَتَكونُ إذا حُرِمَ مِنْ رُؤْيَةِ الأَحْفادِ- بَلْهَ الأَولادَ -؟! لا.. لا.. هذا لَنْ يَكونَ...

وفَكَّرَ أَنْ يَتَنازَلَ عَنِ الأَنْفِ، فَنَهَضَ وأَسْرَعَ إلى المِرْآةِ.. حَدَّقَ في وَجْهِهِ وصاحَ: ما أَقْبَحَ هَذا الوَجْهَ الّذي أَراهُ لَو أَصْبَحَ بِلا أَنْفٍ.. هَلْ يُعْقَلُ أَنْ أَبْدَأَ حَياتي شابًّا وَسيمًا وأُنْهِيَها على شَكْلِ قِرْدٍ!!؟ لا.. لا..

إذًا لِأَتَنازَلْ عَنِ الخِصْيَتَينِ..

قالَها بِامْتِعاضٍ.. فَقَدْ سَمِعَ مُحاضَرَةً مِنْ طَبيبٍ مُخْتَصٍّ أَنَّ الإنْسانَ بِلا خِصْيَتَينِ يَكونُ أَجْرَدَ أَمْلَسَ بِلا شَعْرٍ كَأَفْعى، أَو كَخِنْزيرٍ مَسْلوخٍ! واحْتارَ الرَّجُلُ في أَمْرِهِ.. ماذا يَفْعَلُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَعْضاءِ جَسَدِهِ الظّاهِرَةِ سِوى... سِوى... وهَمَسَ

لِنَفْسِهِ بِها خَجِلًا.. صَحيحٌ إِنَّهُ يَتَمَلْمَلُ أَحْيانًا.. ويُحاوِلُ الوُقوفَ كَما كانَ يَفْعَلُ أَيّامَ الشَّبابِ، ولكِنْ هَيهاتَ!! إِنَّهُ الآنَ سِلْعَةٌ قَدِ انْتَهَى تاريخُ صَلاحِيَّتِها! فَضَحِكَ لِهذهِ المَقولَةِ وراحَ يَتَعَجَّبُ مِنْ شُيوخٍ في مِثْلِ سِنِّهِ، يَرْغَبونَ في الزَّواجِ بادِّعاءِ أَنَّهُمْ بِحاجَةٍ الى وَنيس، وحَقيقَةُ الواحِدِ مِنْهُمْ أَنَّهُ بِحاجَةٍ الى أُنْثى وَيَكونُ ثالِثَهُمْ إِبْليس!... ناسينَ أَو مُتَناسينَ أَنَّ المُتْعَةَ في خَريفِ العُمْرِ تَكونُ مُتْعَةَ الفِكْرِ والرُّوحِ.... إِذًا هذا ما سَأَتَنازَلُ عَنْهُ! وتَخَيَّلَ أَنَّهُ بِدونِهِ، وأَنَّ ما بَقِيَ مِنْهُ لا يَزيدُ عَنْ ثَقْبٍ ضَيِّقٍ لِلتَّبَوُّلِ! فَأَسِفَ لِما سَيَحْدُثُ لَهُ مِنْ تَشْويهٍ..

وكَما اخْتَفى مَلَكُ المَوتِ، ظَهَرَ حامِلًا موسَى شِفارُها لامِع، وحَدُّها قاطِع، وسِرُّها باتِع! أَغْمَضَ الرَّجُلُ عَينَيهِ وَجِلًا مُشْفِقًا على نَفْسِهِ مِنْ رُؤْيَةِ الدَّمِ المَسْفوكِ، ولَكِنَّهُ عادَ وفَتَحَهُما، فَرَأَى وَجْهَ زَوجَتِهِ يُطِلُّ عَلَيهِ بِإِشْراقَتِهِ المُحَبَّبَةِ لِتَقولَ: قُمْ يا رَجُل! لَقَدْ طالَتْ قَيلولَتُكَ..

بَينَما كانَ يَنْهَضُ سابِحًا في عَرَقِهِ، راحَتْ يَمينُهُ تَتَحَسَّسُ أَعْضاءَهُ.. تَبَسَّمَ في سِرِّهِ غَيرَ نادِمٍ على قَرارِهِ الصَّعْبِ الَّذي اتَّخَذَهُ...

ذُبابَةٌ..

قالَ لي صديقٌ ما بينَ جِدٍّ وهزْلٍ: يا صديقي يا خِرّيجَ المعاهدِ العُليا والمُثَقَّفَ؛ أَنتَ كالماءِ.. قلتُ: كيفَ؟ قالَ لا طَعمٌ لكَ ولا لونٌ، ولكنْ لا يمُكنُني الاستغناءُ عن صَداقَتِكَ! قلتُ: قاتَلَكَ اللهُ على الأُولى، وغفرَ لكَ على الثّانيةِ؛ ولكنْ ما دافِعُكَ الى هذا التَّشبيهِ؟ قالَ: ترى وتسمعُ ما يدورُ حولكَ من أَحداثٍ ساخنةٍ فلا تُشاركُ في إضرابٍ أَو مُظاهَرةٍ أو حتّى لا تُبدي رأْيًا، وحياتُكَ لا تزيدُ عن عملِكَ وبيتِكَ وكَرْمِ زيتونِكَ، ودائَرةُ الحياةِ يا صديقي أَوسعُ من هذا بِكثير! تبسَّمتُ وقلتُ تفاديًا لنقاشٍ قد يقودُنا الى ما لا تُحمدُ عُقباهُ: كفاكَ تبخيسًا ومُبالغةً، كأَنّكَ تُريدُ أَنْ تقولَ لي: هذا جُبنٌ وانهزاميَّةٌ! لِمَ لا يكونُ موقفي هذا حَذرًا أَو مداراةً منّي لِظالِمينَ أَبناءِ حرامٍ على حَدِّ قولِ والدَتي رحمَها اللهُ! فردَّ قائلًا: دعكَ من مُبرِّراتِكَ السّاذِجَةِ هذهِ واقبلْ كلامي على أَنَهُ لفتُ نَظَرٍ من صديقٍ مُحِبٍّ؟ يُريدُ أَنْ يُذكِّرَكَ بِأَنَّ السّاكِتَ عنِ الحقِّ شيطانٌ أَخرس! ضَحِكَ وضحكْتُ.. وافترقْنا.

في صباحِ اليوم التّالي جلستُ لِأَتناولَ وجبَةَ الصَّباحِ وتفكيري يعودُ بي إِلى ما قالَهُ صديقي لي؛ وبينما أَنا كذلكَ، وقبلَ أَن تمتدَّ يدي إِلى الطّعامِ، وإِذ بِذُبابةٍ تحُطُّ على طعامي

مادَّةً خُرطومَها الصَّغيرَ لتبدأَ بتناولِ طعامِها هي الأُخرى.. ذَبَبْتُها فطارتْ، ولكنَّها سُرعانَ ما عادَتْ لتواصِلَ مُشارَكَتَها لي في طعامي.. فعلتُ ذلكَ بها ثانيةً فثالثةً وفي كلِّ مرَّةٍ تعودُ إلى مَكانِها وتُواصِلُ عَمَلَها. عزفَتْ نفسي عنِ الطّعامِ وقمتُ لِأُعوِّضَها مِنْهُ بفنجانٍ منَ القهوةِ.

وإِنْ كانتْ تلكَ الذُّبابةُ العَنيدَةُ قَدْ غابَتْ عن عيني، فإِنَّها لم تَغِبْ عَنْ فِكْري.. قُلْتُ في نَفْسي: ما أَشَدَّ إِصرارَها على تحقيقِ ما تُريدُ، وما أَسْرَعَ هزيمَتي! لِمَ لمْ أَطرُدْها شَرَّ طَردَةٍ وأَمْحُ آثارَ عُدوانِها وأَتناولْ فُطوري؟ وقفزَتْ صورةُ أُمّي وهي تقولُ لي كُلَّما رأَتني في ساعةِ ضِيقٍ من أَمرٍ ما، أَراهُ أَنا هامًّا وتراهُ هي تافهًا، أَو تُحاولُ تتفيهَهُ لِتأْخُذَ عنّي بعضَ ضيقي « الذُّبابةُ يا وَلَدِي لا تَقتُلُ بل تُغَضْغِضُ المَنافس» (وتُغَضْغِضُ هذهِ من غَضْغَضَ أي نَقَصَ وغاضَ.. هذا ما عرفْتُه عندما بلغتُ مَبلَغَ الرِّجالِ) وتذكَّرْتُ صديقي وحديثَهُ أَمسِ، فخجلْتُ من نَفسي.. كيفَ لا أَخجلُ وأَنا بَشَرٌ والبشَرُ أَشْرفُ مخلوقاتِ اللهِ على هذهِ الأَرضِ! أَجدُ نَفسي مُنْدَحِرًا أَمامَ حَشَرَةٍ ضَعيفَةٍ ولَكِنَّها تَسْعى إِلى غايَتِها بِعَزيمَةٍ وإِصْرارٍ غَيرَ آبِهَةٍ بِصَغيرٍ أَو كَبيرٍ، أَو حَتَّى بِمَلِكٍ أَو وَزيرٍ.

كَتَبَ عَمْرو بن بحر الجاحظُ: « كانَ لَنا بِالبَصْرَةِ قاضٍ يُقالُ لهُ عبدالله بن سِوار لَمْ يَرَ النّاسُ حاكمًا قَطُّ، ولا زِمِّيتًا ولا رَكينًا» أَي جَليلًا وَقورًا ثابِتًا. وراحَ يَسْرُدُ عَلَينا بِروحِهِ المَرِحَةِ كيفَ حَطَّ الذُّبابُ طَورًا عَلى أَرْنبَةِ أَنْفِهِ، وطَورًا في مَوْقِ عَينِهِ وهو «مَعَ ذلكَ لا يُحرِّكُ يَدَهُ ولا يُشيرُ بِرَأْسِهِ».. وظَلَّ صَابِرًا وَقورًا إِلى أَنْ أَخْرَجَهُ الذُّبابُ عَنْ طَورِهِ ومِنْ ثَمَّ عَنْ وَقارِهِ، فقالَ: «أَشْهدُ أَنَّ الذُّبابَ أَلَحُّ من خُنفَساءَ، وأَزْهَى مِنْ غُرابٍ، وقَدْ عَلِمْتُ أَنيّ عِندَ النَّاسِ مِنْ أَزْمَتِ النَّاسِ، فَقَدْ غَلَبَني وفَضَحَني أَضْعفُ خَلقِهِ».

أُودِّعُ شيخَنا الجاحظَ مُثْقَلًا بِضَعْفي البَشَرِيِّ لِيَقْفِزَ أَمامَ ناظِريَّ المُتنبّي بِعَظَمَتِهِ وجَبَروتِهِ وهو يُنشِدُ: «... الرَّأْيُ فَوقَ شَجاعَةِ الشُّجعانِ». إِذًا الرَّأْيُ الحُرُّ شجاعةٌ.. فَأَينَ أَنا مِنْ هذا!! ويأْخُذُني سِحرُ التَّاريخِ إِلى خالِدِ بن الوليدِ وهْوَ على فِراشِ المَوتِ يَنْدُبُ حَظَّهُ، وكانَ طامِعًا بالشِّهادةِ فَبَكى وقالَ: « لَقَدْ شَهِدْتُ مِئَةَ زَحْفٍ أَو إِزاءَها، ومَا في بَدَني مَوضِعُ شِبرٍ إِلاّ وفيهِ ضَربةٌ بِسَيفٍ، أَو رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ، أَو طَعْنَةٌ بِرُمحٍ، وها أَنا ذا أَموتُ عَلَى فِراشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ البَعيرُ، فَلا نَامَتْ أَعْيُنُ الجُبَناءِ»!

أَترُكُ التَّاريخَ لِأَهلِهِ وأَعودُ إِلى نَفْسِي أُسائِلتُها: مَنْ أَنا؟ ومَاذا أُريدُ مِنَ الحَياةِ؟ ومَاذا تُريدُ هِيَ مِنّي؟ وإِذا صَحَّ أَنَّ هَذهِ الحَياةَ صِراعٌ فَأَينَ أَنا مِنْ هَذا الصِّراعِ؟ هَلْ أَسيرُ في خِضَمِّهِ أَمْ أَسيرُ عَلى هامِشِهِ؟ وأَعودُ إِلى صَديقي الَّذي يَجِدُني بِلا طَعْمٍ وبِلا لَونٍ ولَكنْ لا يُمْكِنُهُ الاستغناءُ عَنْ صَداقَتي، وأَنا هَلْ بِاسْتِطاعَتِي أَنْ أَخْذِلهُ وأَنا أَراهُ في جُبِّ النّارِ يَبْتَسِمُ لِي، أَو هَكَذا خُيِّلَ إِليَّ، فَصِحْتُ وأَنا لا أَدْرِي مِنْ أَينَ لِي هَذِهِ العَزيمَةُ، ومِنْ أَينَ خَرَجَتْ صَرْخَتِي.. أَمِنْ حَنْجَرَتِي أَمْ مِنْ هَيَجانٍ مُفاجِئٍ في دَمِي؟ صِحْتُ.. وصِحْتُ: لا نامَت أَعيُنُ الجُبَناءِ!! لا نامَتْ أَعيُنُ الجُبَناءِ!! أَنا آتٍ إِلَيكَ يا صَديقًا يَحمِلُ دَمَهُ عَلى راحَتِهِ.. أَنا آتٍ إِلَيكَ وأَنا أَلَحُّ مِنْ ذُبابَةٍ، وأَزْهَى مِنْ غُرابٍ!!

نَعيُ عنترَة..

في خَلوةٍ معَ النَّفسِ ذاتَ مساءٍ، وبعدَ أَن أَرجعَتْهُ الذِّكرياتُ إِلى الوراءِ عُقودًا تراكمَتْ فوقَ بعْضِها فجعَلَتْ منهُ جَدًّا لِأَحفادٍ وحفيداتٍ في مُختلَفِ الأَعمارِ، نَدَّتْ آهةٌ من بينِ شفتيهِ العَجْفاوينِ تعجُّبًا من سُرعةِ الزَّمنِ لا تَوجُّعًا ! إذ كيفَ يتوجَّعُ مَنْ كانَ مثلَهُ وهو المُعتزُّ بأُسرتِهِ من بناتٍ ومنْ بنينَ وأَحفادٍ وحفيداتٍ يرى في أَعمارِهِم امتِدادًا لعُمرِهِ؛ وهذا بحَدِّ ذاتِهِ يجعلُهُ مُقبِلًا على الحياةِ غَيرَ مُدبِرٍ.. يجعَلُهُ سعيدًا لا يتحسّرُ على شبابٍ خطَّتْهُ الأَيّامُ سطورًا جميلَةً في دفاتِرِها، ولا حتّى ينشغِلُ بالتَّفكيرِ بالموتِ وهو في خريفِ العُمرِ كما يفعلُ الكثيرونَ من أَترابِهِ!

حينَ وصلَ الصِّغارُ، كعادتِهم، في أَيّامِ العُطلةِ الأُسبوعِيَّةِ، هَشَّ الجَدُّ أَبو أَحمد وبشَّ لِرُؤْيةِ الصِّغارِ، فَمَنْ مِثلُهُم قادِرٌ على إِدخالِ الفَرَحِ الى قلبِهِ الّذي باتَ يعمَلُ بِمُنشِّطاتٍ طِبِّيَّةٍ تُعيدُ تنظيمَ دقّاتِهِ، والقُدرةَ على ضَخِّ الدَّمِ ليصلَ الى كلِّ جارحةٍ من جوارحِ جسمِهِ الضّاوي... وتَأْخذُهُ الذِّكرياتُ الى زَمَنٍ غابِرٍ كانَ فيهِ حَفيدًا، وكيفَ كانَ يهرَعُ لِيَرتمي على صَدرِ جَدَّهِ بمَحبَّةٍ غامِرَةٍ، وكيفَ كانَ يرى دموعَ الفَرَحِ تَتَرَقْرَقُ في عينيهِ الذابِلَتينِ، ويسمَعُ وشوشَةَ الشُّكرِ لِرَبٍّ معبودٍ وهبَهُ

ما وهبَهُ من زينَةِ الحياةِ الدُّنيا... ثُمَّ لا يَلبَثُ أَنْ يُلِحَّ عليهِ كي يحكي لهُ حِكايَةً... ويتساءَلُ الجَدُّ أبو أحمد في سِرِّهِ: أينَ الأَحفادُ اليومَ من أَحفادِ تلكَ الأَيّامِ؟! يدخلونَ.. يُقبِّلونَ يَدَ الجَدِّ كفريضةٍ يُؤَدّونها أكثرَ منها اشتياقًا! ويجلِسونَ، لا يَتقافزونَ ولا يتهارشونَ، ولا حتّى يتكلَّمونَ بل كُلُّهُم صامتونَ وغارِقونَ في شاشاتِ (آي فوناتِهم) الصَّغيرةِ.

وتَأْخُذُهُ الذِّكرياتُ مَرَّةً أُخرى إلى أيّامٍ مَضَتْ حيثُ كانَ الجَدُّ مركِزَ الدّائِرةِ في السَّهَراتِ، خاصَّةً في ليالي الشِّتاءِ، فكانوا يتحلَّقون حولَ الموقِدِ يلبَسونَ الدِّفْءَ رِداءً فوقَ أَردِيتِهم ويُصغونَ إلى الجَدِّ وهو يقصُّ عليهِم حِكايةَ عنتر وعبلة، والشّاطر حسن والسِّت بدور، والزّير سالم، وأبي زيد الهلالي سلامة، بطريقةٍ تمثيليَّةٍ تشدُّ حواسَّهم وتُحرِّكُ خيالاتِهم؛ فمنهم مَنْ يتخيّلُ عنترةَ صالح السَّعدي بطلَ القريةِ وشايلَ شَيْلَتِها، وصارِعَ ثور أبي خَلَفٍ الشَّرسَ في السّاحَةِ العامَةِ؛ ومنهم مَنْ يتخيَّلُهُ شبيهَ الخْضرِ في الصّورةِ المعلَّقةِ في كلِّ بيتٍ، يمتطي حصانَهُ الجامحَ ورُمحُهُ في يمُناهُ، إلّا أَنَّهُ عَبدٌ أَسود.. ومنهم مَنْ تخيَّلَ عبلةَ مثلَ (قُمريَّة) أجملِ صَبايا القريةِ والّتي ظلَّ يُضربُ فيها المَثَلُ حتّى بَعْدَ

أَنْ شاخَتْ وماتَتْ..... حلاوةُ الذِّكرى هذهِ دفعتْهُ إلى خاطرٍ خطرَ لهُ فَجأَةً، فقالَ: اسمَعُوا يا أَعزّائي.. ماذا لو تركتُم ما بأَياديكُم وأَصغيتُم لِأحكي لكم حكايةَ عنترة، هذا الفارسِ العربيِّ، وما حدثَ لهُ معَ ابنةِ عمَّهِ عبلة.. وكيفَ كانَ يُغيرُ على الأَبطالِ فيُجَندِلُ الواحدَ تِلوَ الآخرِ! وراحَ يقصُّ عليهم القصَّةَ متقمِّصًا شخصيّةَ جدِّه بحركاتِهِ وبأُسلوبِهِ التَّمثيليِّ، مُؤَكِّدًا على شجاعةِ عنترةَ وإقدامِهِ.. فقاطعهُ أَحدُ الأَحفادِ باسِمًا:

- وهل عنترةُ هذا يا جَدّي يبْطحُ (سبايدر مان)؟

ووَسْطَ موجةِ الضّحكِ قالَتْ إحدى الحفيداتِ:

- عبلةُ هذهِ يا جَدّي لا يمُكنُ أَنْ تكونَ أَجملَ من (هيفا وهبي)!

وأُسْقِطَ في يدِ الجدِّ.. ولكنَّهُ قرَّرَ أَنْ لا يستسلِمَ فقالَ: ما رَأْيُكم لو تَرَكْنا عنترة معَ ابنةِ عمّهِ، وحكيتُ لكم حكايةَ أَبي زيد الهِلالي سلامة؟ وكانَ في القريَةِ رجلٌ يبيعُ سَمَكًا يدعى سلامة، فقالَ حفيدٌ آخَرُ من بابِ التَّنَدُّرِ:

- وهل لسلامة السَّمّاكِ حكايَةٌ يا جَدّي!؟

ومن خَلَلِ ضَحكِ الأَحفادِ المُتواصِلِ، قالَ الجدُ ضاحَكًا هو الآخَرُ:

- حَسَنًا، ما رأْيُكم بأَنْ أَقُصَّ عليكم قِصَّةَ الزّير سالم؟ وعلَتِ الأَصواتُ لِتُنهي مُحاولاتِ الجَدِّ في إقناعِهِم بالإصغاءِ الى قصصِهِ:

- لا تُتعبْ نَفسَكَ يا جَدّي، لا سالم ولا سلامة ولا عنترة.... دَعْهم يرقدونَ بينَ طيّاتِ الكتُبِ! ...ورفعَ أَحدُهم (آي فون) عالِيًا قائِلًا:

- هذا يا جَدّي يضَعُ العالَمَ بِما فيهِ بينَ أَيدينا ويقُصُّ عَلينا قصصًا لا أَوَّلَ لها ولا آخِر..

ويصمتُ الجدُّ غيرَ عاتِبٍ ولا غاضبٍ.. مُتَرَحِّمًا على جبران خليل جبران إذ قالَ: أَبناؤُكم ليسوا لكُم.. أبناؤُكم أَبناءُ الحياةِ.. والحياةُ لا تعيشُ في منازِلِ الأَمسِ...ولكنَّهُ عادَ وترحَّمَ على أَوَّلِ مَنْ قالَ: مَنْ ليسَ لهُ ماضٍ ليسَ لهُ مستَقبَلٌ بل يعيشُ حاضِرَهُ مُعلَّقًا لا في السَّماءِ ولا على الأَرضِ! صمَتَ حزينًا كئيبًا لاعلى تُراثٍ عربيٍّ أَلبَأَهُم لِبَأَ العِزَّةِ والكَرامَةِ فقطْ، بل على تلكَ الرَّوابطِ الإنسانيّةِ السَّاميةِ الآخذةِ بالانقراضِ بينَ الأَخِ وأَخيهِ في الأُسرةِ الواحِدةِ! بلَهَ العلاقةَ بينَ الإنسانِ وأَخيهِ الإنسانِ.....

كورونا..

Covid 19

استيقظَ السَّيّد فرج من دونِ ساعةِ مُنبّه.. فمنذُ أَن خرجَ إِلى التَّقاعدِ لم يعدْ بحاجةٍ الى ساعةٍ آليَّة.. خاصَّةً وقد نمّى بداخِلِهِ ساعتَهُ البيولوجيّةَ.. يقولُ أَهلُ المعرفةِ إِنَّ بداخلِ كُلِّ إِنسانٍ ساعةً بيولوجيَّةً تنظِّمُ لهُ عاداتِهِ اليومِيَّةَ بِأَوقاتِها كالاستيقاظِ وساعةِ القيلولةِ والجلوسِ إِلى الطّاولةِ وقتَ العشاء.. وموعدِ الذّهابِ إِلى الفِراش..... وليسَ بالضَّرورةِ أَن تُنجَزَ هذهِ العاداتُ بالدَّقيقة.. وهذا ما اعتادَ عليهِ السَّيّدُ فرج.. واعتادَ أَيضًا بعد أَن يستيقظَ صباحًا أَن يظلَّ في الفراشِ يتقلَّبُ من جنبٍ إِلى آخرَ يستمعُ إِلى أَخبارِ ذاكَ اليوم، ولا ينهضُ من سريرِهِ قبلَ أَن يشحنَ روحَهُ بشِحنةٍ رحبانيَّةٍ تُفتِّحُ أَمامَهُ أَبوابَ الأَمل، وتجعلُ شيخوخَتَهُ أَكثرَ طراوة..

ولكنّ السّيّد فرج، ومنذ أَن اجتاحَ العالمَ فيروس كورونا هذا، زادَ شغفُهُ بالاستِماعِ إِلى نشراتِ الأَخبار.. ليس خوفًا لا.. لا.. ولكنّه قَلَقُ الماركسيِّ على مصيرِ البشَريّةِ من هذا الخطرِ الدّاهِم، والّذي وضعَ العُلماءَ في موضعٍ لا يُحسدونَ عليه.. بعد كلِّ هذا المُنجزِ الحضاريِّ يظهرُ فيروس حقيرٌ لا يُرى إِلّا بمِجْهرٍ خاصّ فيعيدُنا إِلى جدليَّةِ الشَّكِّ واليقين.. أَينَ نحنُ...؟ - يحدِّثُ نَفسَهُ - هل نعيشُ في وَهْمٍ اسمُهُ تقدُّمٌ

عِلمِيٌّ؟ وما نفعُ الحضارةِ إذا كانت حياةُ البشَرِ في خطرِ إبادةٍ والعِلمُ بِكُلِّ فَخامَتِهِ يقفُ عاجزًا خَجولًا... يستَدرِكُ ويُتمتِمُ.. لا.. لا.. العلمُ الّذي أَخرَجَ البَشَريَّةَ من آفاتٍ لا تَقِلُّ فَظاعةً عن الكورونا هذهِ، لا بُدَّ من أَنْ يجدَ مَخرَجًا لِلبشَرِيَّةِ عاجِلًا.. أَو.. أَو.... آجِلًا.

وكان السَّيِّدُ فرج يعتقدُ أَنَّهُ آخِرُ مَنْ يضيقُ صدرُه بالحَجْرِ الصِّحّيِّ المنزِليّ.. فهو بعدَ ما مَرَّ عليهِ من سَنَواتٍ عجافٍ وأُخرى سِمانٍ، أَصبحَ لا يجدُ الرّاحةَ الحقَّةَ إِلّا في بيتِهِ إِلى جانبِ زوجتِهِ وأَحفادِه الّذينَ قلّمّا يخلو البيتُ منهم؛ أَمّا إِذا خرجَ فَلِعِيادةِ قريبٍ أَوصديقٍ أَو مُرافقةِ زوجتِهِ للتّسوُّقِ أو إِلى عيادةِ طبيبِ العائِلةِ لِشأنٍ صحّيّ..

ليس عندَ السّيّد فرج وقتٌ ضائع.. فوقتُه موزَّعٌ – يوميًّا تقريبًا – ما بينَ العِنايةِ بِحديقتِهِ الصَّغيرَةِ من نِكْشٍ وتَعشيبٍ وتّشذيبٍ وإِرواء.. أَو استقبالِ زائرٍ أو قراءةِ كتابٍ أَو جريدةٍ.. أَو القيامِ بأعمالٍ منزليَّةٍ يجيدُها كَتغييرِ صُنبورِ ماءٍ تالِفٍ، أَو فَتْحِ انسِدادٍ في ماسورةِ إِحدى المَغاسِل.. وكثيرًا ما يساعدُ زوجتَهُ عندَ إِعدادِها للطَّعامِ كتحضيرِ السَّلاطَةِ.. أَو عِندَ إِعدادِها لِلمناقيشِ....

والسّيّدُ فرج يعتبرُ نفسهُ هادئَ الطَّبعِ رقيقًا عطوفًا.. يشهدُ بذلكَ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ.. حتّى زوجتُه تقولُ بشيءٍ من الزُّهُوِّ بين نساءِ الحارةِ حينَ يتحدَّثنَ بطبائعِ الرّجالِ: الّذي عندي (تقصدُ زوجَها السّيّد فرج) هادئٌ لدرجَةِ أَنَّني أَتمنّى لو يصرُخُ في وجهي يومًا!

ولكِنَّ ضيقَ الصَّدْرِ بَدَأَ يَتَسَرَّبُ إلى أَعصابِهِ قَليلًا قَليلًا.. تَعليماتُ دائِرَةِ الصِّحَّةِ مُشَدَّدَة.. لا استِخْفافَ بِها.. الإقامَةُ المنزِليَّةُ الإجباريَّةُ مَقدورٌ عليها، ولكنَّ الخروجَ من المنزِلِ بِكِمامَةٍ وقُفّازَينِ، فهذا أَمْرٌ غيرُ مَقدورٍ عَليه! يضْحَكُ... عادَتْ بِهِ ذاكِرتُهُ إلى أَيّامِ البيادرِ، إِذْ كانوا يَكُمّونَ الدَّوابَّ على البيدَر عندَ دَرْسِ الحصيدِ لِئَلّا تُعيقَ عَمَلِيَّةَ الدّرْسِ بِرَمِّها المَدروسَ مِنَ الحِنْطَةِ مَرَّةً بعدَ مَرَّة..

لَن يخرُجَ السَّيّد فرج من بَيتِهِ بِكِمامَة.. سيكتفي بالخروجِ الى الحديقَةِ.. كانَ قد قَرَأَ في كِتابٍ ما أَنَّ الجلوسَ في مكانٍ هادِئٍ والتَّأَمُّلَ في كُنْهِ الأَشياءِ الّتي يراها تَقتُلُ الإحساسَ بِالفَراغِ، وتُؤَخِّرُ ظاهِرةَ الخَرَفِ عند الشُّيوخ.. فإِذا نظَرتَ إِلى شجرَةٍ مثَلًا لا تمِلْ بوجهِكَ عنها قبلَ أَن تَسْترَسِلَ عائِدًا بذاكرتِكَ إِلى مَدْرَسَتِكَ الأُولى يومَ تَعَلَّمتَ أَنَّ للشَّجرةِ

جُذورٌ.. ولها ساقٌ وفروعٌ وأَغصانٌ وأَوراقٌ وثمرٌ، إذا لم تكنْ لِلزّينة.. وهي مَأْوىً لِلعصافيرِ وبَهجَةٌ لِلنّاظِرينَ وملاذٌ ناعِمٌ للمُسْتَظِلّينَ.. وهذا أَيضًا يجعلُ وَحْدَتَكَ مُسَلِّيةً وأَعصابَكَ هادِئة. هذا الى جانِبِ الموسيقى من كلاسيكِيّةٍ إلى حديثَةٍ، وصولاً إِلى موسيقى (الرّاب). سأَلَهُ صديقٌ: كيفَ تجمعُ بينَ الاستماعِ إِلى أُم كلثوم وبين الاسْتِماعِ إِلى الرّاب!؟ أَجابَ بابْتِسامَةٍ رَقيقَةٍ: الاستماعُ يا صاحبي إِلى السِّت ام كُلْثومِ سكونُ الماضي الَّذي عِشْناهُ، وأَمّا (الرّاب) فَحرَكَةُ الزَّمنِ الآتي الّذي سيعيشُهُ أَحفادُنا... ضَحكَ الصَّديقُ وقالَ: ها قد دَخلْنا في الفَلسَفَة! ...وداعًا.

كُلُّ هذهِ الأَفكارِ قد تَلَبَّسَتْهُ وهو مُسْترَخٍ تحتَ شجرَةِ المَندَلينا في كُرسِيِّهِ المُريحِ ما بينَ نُعاسٍ ونوم.. وفَجْأَةً ظَهَرَتْ لهُ جَنازَةٌ من بعيدٍ.. أَربَعَةُ رِجالٍ يحملونَ التّابوتَ.. أَفرادٌ معدودونَ يسيرونَ وراءَ الجنازةِ! مِسكينٌ هذا المُتَوَفىَّ، قالَها في نفسهِ مُترَحِّمًا.. لقد أَكَلَتْهُ الكورونا بعد أَن سلبتْهُ أَثْمَنَ ما عِندَه... حُرِّيّتَهُ.. ومَنَعت عنْهُ أَحفادَهُ وبناتِهِ وأَبناءَهُ وأَصهارَهُ والّذين أَحبَّ مُجالَسَتَهُم منَ الأَصدِقاء.. أَذَلَّتْهُ بالكِمامَةِ والقُفّازينِ.. وها هو يُودِّعُ الدّنيا بصمتٍ.. لا

مُشيِّعونَ ولا كَلِماتُ تأْبينٍ ولا نادِبات.. الجنازةُ تقترِب.. لقد أَصبَحَتْ على مرمى حجر.. تُرى جنازَةُ مَنْ هذهِ؟ على غيرِ عادَةِ المُشيِّعينَ، أُنْزِلَ التّابوتُ عن الأَكتافِ وجلسَ حامِلوهُ يرتاحونَ.. لِدَهشَةِ الحاضرينَ.. تَحرَّكَ غِطاءُ التّابوتِ وأُلْقِيَ بعيدًا.. وخرجَ المتوفّى منهُ غاضِبًا غيرَ مُبالٍ بِمَنْ حَولَهُ.. نظرَ إِلى السَّماءِ وصاحَ بِكُلِّ ما أَمَدَّتْهُ شَيخوخَتُهُ من قوَّة ... يا الله! كم تمَنَّيتُ عليكَ أَن أَموتَ من أَجلِ أَمرٍ جَلَل.. وها أَنَذا أَموتُ في الزَّمنِ الخطإِ بسَبَبِ جرثومَةٍ ماكِرة.. لا كلماتِ تأْبينٍ أَسمعُ.. لا مُشَيِّعينَ أَرى...!! قالَ هذا وجثا على رُكبتَينِ هَزيلَتين.. وشَرَعَ يبكي بُكاءً مُرًّا.. ونظَرَ السَّيِّدُ فَرج مدهوشًا مُشوَّشًا كالحاضِرينَ، إِلى هذا المَيِّتِ الحيّ.. وراحَ يحدِّقُ.. ويحدِّقُ.. صاحَ: يا لَلهَول! كَم يُشْبِهُني بل يكادُ يكون أَنا! بل هو أَنا وهذهِ الجنازَةُ الباهِتَةُ جَنازتي!!

عَطْسَةُ زَوجَتِهِ الّتي كانت قد جلسَت الى جانِبِهِ جاهِدَةً أَلّا توقِظَهُ.. أَيقظَتْهُ.. نَظَرَ إليها نَظْرَةَ مَنْ خرجَ مِنَ قبرٍ وعادَ إِلى الحياة! قالَتْ مُتأَسِّفةً: أَيقَظْتُكَ!؟ قالَ وكانَ قد استردَّ كامِلَ وعيِهِ: بل ما أَجمَلَ ما فَعَلْتِ...! ما أَجْمَلَ ما فَعَلْتِ...!

الحارَة – أَدَبٌ تسجيلِيّ..

البقيعة.. (قَرْيَةٌ فِلَسْطينِيَّةٌ بامْتِياز..)

ما كانَ يمُكنُ أَنْ تَجدَ قَريةً من قُرانا الفِلَسْطينِيّةِ بِدونِ ساحَةٍ تَجمَعُ سُكّانَها كَأُسْرَةٍ واحِدة.. وما كَتَبْتُ عن قريتي الجميلةِ- وقد كتبتُ الكثيرَ- يَظَلُّ مَنْقوصًا إِن لم أَكتبْ عن ساحتِها المعروفةِ عندنا بِ (الحارة).. سألتُ صديقي وقتَ ضيقي (لسان العرب) إذا كانت التَّسميةُ فصيحةً، قالَ: الحارةُ كُلُّ مَحَلَّةٍ دَنَتْ مَنازِلُهم، فَهُم أَهلُ حارةٍ. واستَنْجَدْتُ بالمُنْجِدِ فَقالَ مُؤَكِّدًا: الحارةُ كلُّ مكانٍ دَنَتْ فيهِ المنازلُ بعضُها من بعض.. وقالَ: الحارةُ المُستَدارُ من الفضاء.. فجاءَت التَّسميةُ تحملُ المَعنَيَين.. فهي مستديرةُ الشَّكلِ تقريبًا، والبيوتُ حولَها مُتراصَّة.. تتوسَّطُها عينُ ماءٍ هي في فصلِ الشتاءِ جدولٌ هادرٌ.. وأَمّا في باقي فصولِ السّنة فلا هي بالغزيرةِ ولا هي بالشّحيحةِ.. هذهِ العينُ زادتْها جمالًا وبهجةً وكانَ لها الدّورُ الأَكبرُ في جعْلِها قلبَ القريةِ النّابض.. هذهِ العينُ جَعلَتْ حياةَ الفلّاحينَ في بلدي أَقَلَّ شَقاءً، وأَكْثَرَ هَناءً، فقد أَروَتْهُم وأَروَتْ دَوابَّهم وبَساتينَهُم، وغَسَلَتْ أَبدانَهُم وخُضَرَهَم كالفُجْلِ واللِّفْتِ وكلِّ ما يُقْلَعُ مِنَ الأَرضِ؛ وغَسَلَتِ البَقْلَ على أَنواعِهِ كالعِلْتِ (الهندَباء) والخُبّازي والشُّمْرَةِ

(الشّومَرِ) والسِّلقِ والزَّعْتَرِ والعَكّوبِ وكُلِّ ما يُؤْتى بِهِ مِنَ الحقلِ.. ولا أَنْسى أُمَّهاتِنا وهُنَّ يُصَوِّلْنَ القمحَ تَحْضيرًا لِغَلْيِهِ في الخَلاقين لِيصيرَ بُرْغُلًا، والبُرغُلُ عِنْدَ الفَلّاحينَ مساميرُ الرُّكَبِ؛ هذا إلى جانبِ الزَّيتِ والزَّيتون.. وغسْلُ البُسُطِ والحُصُرِ ما كانَ أَعْقَدَهُ لولا وجودُ هذهِ العينِ المُبارَكَة. كُلُّ هذا كانَ يَتِمُّ والمُشَرِّقُ مُشَرِّقٌ والمُغَرِّبُ مُغَرِّبٌ، والشُّيوخُ يجلسونَ تحتَ التّوتَةِ، ومِنْهُمْ مَنْ جلسَ عِنْدَ الماءِ مُبرِّدًا قدَميهِ.. أَمّا الأَولادُ- كعادَتِهم- فَتراهُم يَتَهارَشونَ ويَتَقافَزونَ كالدُّيوكِ حينًا وحينًا يتَراشَقونَ بِالماءِ غيرَ آبِهينَ لِأَحَد.

2

يقولُ العارفونَ إِنَّ أَوّلَ مَن سكنَ القريةَ هم المسيحيّون.. والدّليلُ أَنَّ البيوتَ حولَ عين الماءِ بغالبيَّتِها لمسيحيّينَ؛ وبَيِّنَتُهم على ذَلكَ أَنَّ الّذي يأتي ليبني بيتًا لا يبنيهِ بعيدًا عن الماء.. منطِقٌ سليم.. وهذا يُبطلُ ادِّعاءَ اليهود بأنّهم هم أَوّلُ من سكنَ القريةَ.. وبعد المسيحيّين جاءَ الدّروزُ ثمُّ اليهود.. أَمّا المسلمونَ فقد لَجَؤُوا إِلى القريةِ بعد دمار (سُحماتا) على يدي الجيش الإسرائيلي سنةَ أَلفٍ وتسعِ مئَةٍ وثماني وأَربعين.. يُستَثنى من ذلكَ بِضْعَ بُيوتٍ على رَأْسِها بيتُ

المرحومِ صالحِ القاضي الّذي جاءَ إلى البقيعةِ من الكابري قبلَ النّكبةِ، وهو والدُ المرحومِ كامل القاضي الّذي كان رئيسًا للبقيعةِ ولسحماتا ولترشيحا، والّذي كان له شأْنٌ في تطويرِ البقيعةِ خاصَّة.

3

نَزَحَ المرحومُ كامل القاضي مع عائلتِهِ إلى لبنان تحسُّبًا من الجيشِ الإسرائيليِّ الّذي كانَ يبحثُ عن زعاماتِ فِلَسطين لاعتقالهم أو لإعدامهِم مَيدانِيًّا؛ نَزَحَ تاركًا وراءَهُ غيرَ محبّةِ الناسِ، مُنجزاتٍ كثيرةً على رأسِها تنظيمُ الحارَةِ بِرَصْفِها بالحجارةِ، ورَصْفِ الطُّرُقاتِ الخَمْسَةِ الواصِلَةِ إليها من جِهاتِها الأَربَعِ اتِّقاءً من وُحولِ الشِّتاءِ.. وماءُ العين، فقد حُصِر في سدٍّ غيرِ مَكْشوفٍ من الباطونِ - معَ صُعوبَةِ الحصولِ عَلَيهِ في ذلكَ الوقتِ!- وتُرِكَتْ فُتحةٌ تخرجُ منها ماسورةٌ ذاتُ فُتحةٍ واسعةٍ تنقلُ الماءَ الصّافي من رأْس النَبعِ وتمتدُّ من جهةِ الحارةِ الشّماليّةِ حيثُ منبعُ الماءِ لِتَصِلَ جنوبَها ولتصبَّ في حوضٍ واسِعٍ؛ أَمّا ماءُ الماسورةِ فهو للاستهلاكِ البيتيِّ، وأمّا ماءُ الحَوضِ فكانَ يعودُ لِيَجْتَمِعَ معَ الماءِ الفائِضِ الّذي يخرجُ بجانبِ الماسورةِ لِيجري بين جِدارينِ مُتوازيينِ

بارْتِفاعِ نصفِ قامةِ الإنسان والمسافةُ بينهما قد تصلُ إلى مترٍ وزيادة. هذا المشروعُ الّذي أُنشِئَ على مقاس المياه الهادرة في فصل الشّتاءِ عُرفَ عند أهلِ القرية بِ (المعدّيّة).. هذه المعدّيّةُ كانَتْ تُوصِلُ الماءَ جَنوبًا ثُمَّ تَنْعَطِفُ شَرقًا، ومن هناكَ يُواصلُ الماءُ جريانَهُ في قناةٍ مكشوفةٍ، فإلى الوادي مُنحَدِرًا لِيُديرَ دواليبَ طاحونةٍ كانتْ تعملُ ما دامتِ المياهُ قادرةً على تحريكِ تلكَ الدَّواليب.. هذا الماءُ كان إكسيرَ الحياةِ للأشجارِ صَيفًا، ولِذا فقد كثُرتْ بساتينُ القريةِ وزَهَت بِخُضَرِها من بنادورةٍ وباذِنجانٍ وفُلفُلٍ وبامِيةٍ ولوبياء.. وبأشجارِها من رمّانٍ بِأَنْواعِهِ، وتينٍ وتوتٍ ومِشمشٍ وخوخٍ ولوزٍ وجَوزٍ؛ أَمَّا الصَّبّارُ فَتَراهُ أَينَما نَظَرْتَ ... وأَمّا شجرُ الميسِ والبُطْمِ الشّامخُ وبالرّغمِ من أَنَّه شجرٌ غيرُ مثمرٍ فقد كانَ يُغْرَسُ لِتَجِدَ الدّوالي سَنَدًا تتّكئُ عليه، ولِيُسْتَفادَ من أَخْشابِها في تَرْميم سُطوحِ البيوتِ التُّرابِيَّة..

بين المعدّيّة والمساحةِ المُعدَّةِ لِتَجَمُّعِ البهائم، ارْتَفَعَ مَمْشىً بِارْتِفاعِ جِدارِها وبِعَرْضِ مِترٍ، شَكّلَ فاصِلًا بَينَها وبَينَ حوضِ الماءِ المُمْتَدِ بمُوازاتِها، ويَسْتَمِدُّ ماءَهُ مِنَ الماسورَةِ الكبيرَةِ بِواسِطَةِ ماسورةٍ صَغيرةٍ تَكْفي لِتَجْعَلَ الحوضَ

طافحًا، والماءَ فيهِ صافيًا دائمًا كي لا يَأْسِنَ وذلكَ لِسَلامَةِ البَهائِم.

على هذا المَمْشى الفاصِلِ بين المعدّيّةِ وحوضِ البهائمِ سارَ الممثّلُ الأَمريكي كيرك دوغلاس نجمُ الستّينيّاتِ وصاحبُ الفيلم الشّهير (سبارتاكوس) والّذي يحكي عن ثورةِ العبيدِ ضدّ أَباطرةِ روما وأَغنيائِها (7 – 37 ق.م). كيرك دوغلاس هذا كان يهوديًّا صهيونيًّا يغضبُ إن وَجَدَ مَن يفوقُه صهيونيّةً؛ وكان قد زارَ البلادَ سنةَ ألفِ وتسعِ مئةٍ وخمسٍ وستّين من القرن الماضي، وزيارتُهُ للبقيعة كانت بدافعٍ صهيونيٍّ محض.

عْاشَ أَهلُنا على الزِّراعةِ آنذاكَ، ولذا فقد لعبت البهائمُ دورًا أَساسيًا في حياتهم.. كانت عونًا لهم في تنقّلِهم من البيتِ الى الحقلِ أو من القريةِ الى القرى المُجاورةِ، عدا عن الحِراثةِ الّتي هي عِمادُ الزِّراعةِ، وعدا عن دَرْسِ الحصيدِ على البيادرِ، فليسَ كثيرًا إذًا إنْ أَعدُّوا لها ساحةً خاصّةً وحَوضَ ماءٍ لِتَنْعَمَ بشُربِها وحَرَكَتِها قبل انطلاقِها الى العملِ أو الى المراعي.. وقلّما خلا بيتٌ في القريةِ من حمارٍ أَو بقرةٍ أو أكثر.. أَمّا الخُيولُ بعددِها القليلِ، فقد رَعاها أصحابُها من ذوي

النّفوذِ وطُلّابِ الزَّعامةِ لِلمُباهاةِ.. وأَمّا الجِمالُ فقد كانت لا تزيدُ عن عددِ أَصابعِ اليدِ الواحِدَةِ؛ وعملُها كانَ مَقْصورًا على نقلِ الحصيدِ إِلى البيادرِ، أو نقلِ الأحمالِ الثّقيلةِ إِلى البيوتِ البعيدةِ عن مدخلِ القريةِ حيثُ ينتَهي دورُ السَّيّارتِ -على قِلَّتِها- تَجَمُّعُ البهائمِ في السّاحةِ العامّةِ كانَ شيئًا مألوفًا عند الأهالي، ويقولونَ: قريةٌ بِدونِ بَهائِمَ قريةٌ عَرْجاء!

4

من مَعالمِ الحارةِ شجرةُ توتٍ.. السّماءُ بشمسِها وقمرِها ونُجومِها فقطْ تَعْرِفُ كمْ مَضَى عليها من السّنين.. عملاقةٌ بجذعِها وفروعِها، رقيقةٌ بِأَغْصانِها، كريمةٌ بظلِّها، لا تُعطي ثَمَرًا حِرْصًا منها على نظافةِ ملابسِ الشّيوخِ الّذين يتجمَّعون يوميًّا تحتَها، فيرتفعُ منسوبُ المحبّةِ بينهم لِيُصْبِحَ مُتَوارَثًا جيلًا بَعدَ جيلٍ، ولِيُصْبِحَ التَّسامُحُ سَيِّدَ المَوقِفِ في حَلِّ مُشْكِلَةٍ هُنا، أَو فَضِّ خِلافٍ هُناك..

هذه التّوتةُ المُبارَكةُ سَمِعتْ في المِهرَجاناتِ الشَّعبيّةِ قصائدَ توفيق زيّاد وسميح القاسم ومحمود درويش وسالم جبران وسميح صبّاغ ونايف سليم وسلمان أَسعد فضّول وأَحْمد فَضّول ونخلة مخّول، وخِطاباتِ جمال موسى وبنيامين

غونين وتمار جوجانسكي وماير فلنر وتشارلي بيطون وتوفيق طوبي وفيليتسيا لانغر وإميل حبيبي وعصام مخّول ومحمد نفّاع... فحَفِظَتْ قصائدَهم وخِطاباتِهم وحَفَرَتْها على جِذعِها شاهدًا على أُناسٍ نَفَضُوا غبارَ الخوفِ عن أَكْتافِهم باكِرًا، وعَرَفُوا كيف يُحافِظُونَ على ما تبقّى لهم من أَرضٍ فِلَسطين بِحِفاظِهم على أَرضِ قَريَتِهِم، مُعَبِّرِينَ عن ذلكَ بِغِنائِهم في أَعراسِهم لِلأَرضِ ولِلْحُرِّيَّةِ ولِلسّلام.. عَظَمَةُ هذهِ التّوتةِ أَكَّدَها محمود درويش في لقاءٍ عَرَضِيٍّ معه في رام الله.. قلتُ لهُ: أَنا من البقيعة. بالرّغم من طولِ غُربتِه وما مرَّ عليهِ من غرائبَ وعجائبَ في حَلِّهِ وترَحالِهِ تبسَّمَ وقالَ: كيف التّوتة! قلتُ: بخيرٍ.. تنتظرُ عودتَكَ مع العائدين.

شَأْنُ التّوتَةِ مع الصِّغارِ شأْنٌ آخرُ، كانوا يتسلّقونها ويتقافزونَ من فَرْعٍ لآخرَ كقرودٍ استفاقت من نومٍ ثَقيلٍ طويل.. كم كنتُ أَغبَطُهم، خاصَّةً حميد وقاسم وبسّام، على مهارتِهم في التَّسلُّقِ والقفزِ وأنا أخافُ تسلُّقَ الأشجارِ، حتّى الواطِئَةِ منها..

5

بعدَ ما مَرَّ عليَّ من السِّنين، لا زِلتُ أَذْكرُ حينَ كنتُ أَمرُّ في

الحارةِ وأَرى والِدي الشّيخَ أَبا حسين فندي مهنّا شابًّا أَنيقًا مَزهُوًّا بِلِباسِهِ الدّينيِّ التَّوحيدِّيِّ يجلسُ في دُكّانِهِ يقرأُ أَكثرَ مِمّا يبيع.. هذا إِذا لم يَكُنْ عِنْدَهُ مَنْ يُجالِسُهُ مِنَ الأَصْدِقاءِ.. وإِلى جانِبِ دُكّانِ والِدي يرتَفِعُ بيتُ السِّيّدِ إِبراهيم بِشُبّاكَيهِ المُطِلَّينِ على الحارَةِ كَعَيني حارِسِ أَمين، وأَرى من خِلالِهِما السّيّدَ إِبراهيم وأَصْدِقاءَهُ يَشْربونَ القَهْوةَ ويلعَبونَ الورَق.. قُبالَتَهُ أَرى دُكّانَ السَّيِّدِ رمزي الّذي لا يَدْخُلُهُ المُحافِظونَ منَ الدُّروزِ، لا لشيءٍ إِلّا لِأَنَّهُ يبيعُ البيرَةَ والنَّبيذ؛ وإِلى جانِبِهِ أَرى دُكّانَ الشِّيخ حسين الّذي كانَ يَغضَبُ مِنَ الّتي تُساوِمُهُ بِسِعْرِ السِّلْعَةِ، وقَدْ يَطْرُدُها غَيرَ عامِلٍ لِغَضَبِها ولِغَضَبِ زَوجِها أَيَّ حِسابٍ؛ وعن يَمينِهِ تقَعُ مَنْجَرَةُ السَّيّدِ جبرائيل، النَّجّارِ الماهرِ في صُنْعِ خَزائِنِ العَرائِسِ المُتَوَّجَةِ؛ وبِجانِبِ بيتِ السَّيِّدِ جبرائيل يشَمَخُ بيتُ الأُستاذِ حنّا الصَّبّاغِ الّذي جَعَلَ منَ البُقَيعَةِ قَريَةً قارِئَة؛ وخلفَ التّوتَةِ يقعُ بيتُ السَّيّدِ صالح وزَوجَتِهِ المَشْهورَةِ بِأُمِّ الزّوزو والّتي كانتْ مُلِمَّةً إِلى حَدٍّ ما بِمِهْنَةِ التّمريضِ، فَكانتْ عَونًا لِصَبايا القَريةِ ونسائِها في حَلِّ مَشاكِلِهِنَّ، ومِنْ ثَمَّ حافِظَةَ أَسْرارِهِنَّ؛ وهناكَ دُكّانُ الشّيخ فارس صَانِعِ الكَعكَبانِ وهو من القَلائِلِ الّذينَ

يملِكونَ جِهازَ راديو في القريةِ؛ والسَّيد يوسف الّذي كانَ لا يُرى إلّا جالِسًا أَمامَ دُكّانِهِ حتى اعتَبَرَهُ البَعْضُ مَعْلَمًا من مَعالِمِ الحارةِ الثّابِتَة؛ والسَّيِّدُ يوسف هذا يَكْرَهُ اثْنَينِ لا ثالِثَ لَهُما، أَوَّلُهُما السَّيِّدُ فارس نِدُّهُ في التِّجارَةِ والَّذي يَعْرِفُ كَيفَ يَخْطَفُ الزَّبائِنَ مِنْهُ؛ وثانيهُما جَمال عَبْد النّاصر لِأَنَّهُ يُؤَمِّمُ الشَّرِكاتِ والمَرافِقَ الاقْتِصادِيَّةَ الخاصّةَ! وإِلى الشَّرقِ قليلًا تَقَعُ دُكّانُ الشَّيخ صالحِ صَانِعِ كَراسى الحَلفاءِ الصَّغيرةِ والمُريحَةِ والّتي بِوفاتِهِ انقَرَضَتْ مَأْسوفًا عَلَيهِ وعَلَيها.. وهناكَ بيتُ الشَّيخ صالح- غير صَانِعِ الكراسي- المَعروفِ بِخِبْرَتِهِ في علاجِ البهائِم.. وبِجانِبِ بَيتِهِ مَعْصَرةُ زَيتونٍ تَنامُ مُعْظَمَ أَشْهُرِ السَّنَةِ وتَسْتيقِظُ بِوافِرِ نَشاطِها في موسِمِ قَطْفِ الزَّيتونِ ودَرْسِهِ.. بِجانِبِها يَقَعُ فُرنُ السَّيّد سلمان والّذي تَوقَّفَ عن العَمَلِ باكِرًا لِأَنَّ الكَثيراتِ من نساءِ القَريَةِ لَم يتَنازَلْنَ عن مواقِدِهِنِّ وعن خُبزِ الصّاجِ.. بِجانِبِ الفُرنِ تَقَعُ دُكَانُ السَّيِّدِ نايف لِلسِّكافَة، والسِّكافَةُ صَنْعَةٌ انقَرَضَتْ بِتَطَوُّرِ صِناعَةِ الأَحْذِيَة.. لِيَدِها تَقَعُ دُكّانُ السَّيدِ فارس- وهذا غيرُ صانعِ الكَعْكَبان –أَمْهرِ تُجّارِ البُقيعَةِ في كَسبِ وُدِّ الزَّبائنِ بِطُرُقِهِ الخاصَّةِ، والمُخادِعَةِ أَحيانًا.. من

الجهةِ الشّماليّةِ يقعُ بيتُ الشّيخ صالح- وهذا غيرُ الاثنينِ السّابِقَين- والمُمَيَّزُ بِشَجَرَتَيَ تينٍ باسِقَتَين، وبِغُموضٍ غيرِ مُبرَّرٍ يكْتَنِفُهُ؛ ويُحْكَى عَنْ الشّيخِ صالح هذا أَنَّهُ كانَ يَنْعَمُ بِقُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ عاليةٍ، وقد تَصَدّى لِثَورِ أَبي نايف المُزْدَهِي بِعُرْعُرَتِهِ ساعةَ هَيَجانٍ، فَأَمْسَكَهُ من قَرْنَيهِ، وبَعْدَ كَرٍّ وفَرٍّ أَلقاهُ أَرضًا! ولا أَنْسى شُيوخَ القريَةِ يتظلَّلونَ بالتّوتةِ ويتحادثونَ ويَتَمازَحونَ أَو يُحَزِّرونَ بَعْضَهُم الحزازيرَ أَو يَلعبونَ (الدّاما) وأَخَواتِها من أَلعابِ الرِّياضَةِ العَقْلِيّةِ.. والصَّبايا يحملْنَ جِرارَهُنَّ على رُؤُوسِهِنَّ من غيرِ أَنْ يُثَبِّتْنَها بِأَيديهِنَّ، ويَسِرْنَ بِشُموخِ الزَّرافاتِ وقد زادَتْهُنَّ نَظَراتُ الشُّبّانِ ثَباتًا ونَشاطًا.. وأَرى الأَطفالَ يتراشَقونَ بالماءِ غَيرَ عابئِينَ بالمارَّةِ أَو السُّيّاحِ الَّذينَ قَلَّما تَخْلو القَريةُ منهم، وقلَّما تَنْجو بِأُناسِها ودوابِّها وبيوتِها من كاميراتِهم.. وأَكادُ أَسمعُ راديو الشَّيخِ فارس صانعِ الكعكَبانِ يَصدَحُ في دُكّانِهِ بِأَعلى ما أَعدَّهُ مُخترَعُهُ من قُدْرةِ صوتٍ، خاصَّةً إِذا كانت المُغَنِّيةُ (صباح) أَو (نجاح سلام) أَو (محمد سلمان) أو (وديع الصّافي) ...وإِذا حدثَ وخُفِّضَ الصَّوتُ لِسَبَبٍ ما، كانتْ تَرْتَفِعُ أَصواتُ الاحتجاجِ من كُلِّ اتجاهٍ تُنادي: ارفع الصَّوت

يا شيخ فارس.. لا تحرِمْنا من هذهِ النِّعَم!!

حينَ كنتُ أَمرُّ فَأَرى الشَّيخَ الجليلَ والدَ الرَّفيق كمال حاجّ المرحوم ميخائيل موسى حاجّ يَجْلِسُ على حَجَرٍ اسطُوانيٍّ أمامَ بيتِهِ كحارسٍ للتّوتَةِ ولِلعَينِ، وقلَّما كنتُ أَراهُ بِدونِ كتابٍ أَو بِدونِ جريدةِ الإتِّحادِ الحيفاوِيَّةِ صوتِ العُمّال والفلّاحينَ، أَقولُ بروحٍ مُطْمَئِنَّةٍ: قريَةٌ فيها قارئٌ، وفيها كتابٌ قَريَةٌ لا خوفَ عليها من عادياتِ الزّمان!!

والآنَ..... وأَنا في الخامِسَةِ والسَّبعينَ، وبعدَ أَن شَوَّهوا لي حارَتي باسمِ التّطوير، أَذكُرُها فَأَراني طِفْلًا أَحِنُّ إِليها كَما يَحِنُّ طِفْلٌ إِلى حِضْنِ أُمِّهِ الدّفيءِ، ولكِنْ ما أَسْرَعَ ما تُعيدُني سَنَواتُ العُمْرِ إلى واقِعِي، ولا يَجولُ في بَالِي سِوى ما قالتْهُ الشّاعِرَةُ العَرَبِيَّةُ بَكّارةُ الهِلالِيَّةُ مُجيبَةً مُعاوِيَةَ حينَ قالَ لها- وكانت قد أَسَنَّتْ-:

غَيَّرَكِ الدَّهْر! قالَتْ:

-كذلكَ هو ذو غِيَرَ.. مَن عاشَ كَبِر.. ومَنْ ماتَ قُبِر!

أَجَلْ...! أَجَلْ...! لَقَدْ عاشوا وكَبِروا.. وماتوا وقُبِروا..

وأَصْبَحوا ذِكرى جَميلَةً نَذْكُرُها... وها نحنُ فَقَدْ غَيَّرَنا الدَّهْرُ..

وعَشْنا فَكَبِرْنا! ولم يَبْقَ لنا سِوى المَوتِ والقَبْرْ!

.. وَ...وَ.. ومَنْ سَوفَ يَأْتي ويَقولُ: حَقًّا لقد عاشوا وكَبِروا..

وماتوا وقُبِروا.. وأَصْبَحوا ذِكرى جَميلَةً

نَذْكُرُها..

الوُسْطَى

رنَّ جَرَسُ التِّلِفون في بَيتِ السَّيِّدِ عائِد مَعَ شُروقِ شَمْسِ نَهارٍ عادِيٍّ مِنْ شَهْرِ شُباط الَّذي (إنْ شَبَط وإن لَبَط رائِحَةُ الصَّيفِ فيه!). مَعَ أَنَّ المُتَعارَفَ عَلَيهِ عِنْدَ القَرَوِيّينَ أَنَّ شُباطَ يَحِلُّ ضَيفًا كَإِخْوَتِهِ مِنْ أَشْهُرِ الشِّتاءِ، ورَغْمَ ضَعْفِهِ وقِصَرِ قامَتِهِ بَينَهُمْ إِلّا أَنَّهُ لا يُبارِحُ إِلّا بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ مَعهُ مَجْموعَةً لا بَأْسَ بِها مِنْ مُعَمِّري القَريَةِ....

رَفَعَ السَّيِّدُ عائِد السَّمّاعَةَ..

-هالو! .....نَعَم!

-نَحْنُ مِنْ بَيتِ المُسِنِّينَ... والِدُكَ تَوَفّاهُ الله!

-شُكْرًا العُمْرَ الطَّويلَ لَكُمْ.

قامَ السَّيِّدُ عائِد وإِخْوَتُهُ وأَخَواتُهُ والأَقْرِباءُ والجيرانُ وأَهْلُ القَريَةِ جَميعًا بِتَكْريمِ المُتَوَفىَّ على أَحْسَنِ وَجْهٍ.. ولَحِقَ من هذا التَّكريمِ نَصيبٌ لِلْوالِدَةِ أُمِّ عائِد الّتي تَوَفّاها اللهُ قَبْلَ سَنَواتٍ لِطيبَتِها ولِوقوفِها إِلى جانِبِ زَوجِها في الضَّرّاءِ قَبْلَ السَّرّاءِ.

والحَقُّ يُقالُ إِنَّ المُتَوَفىَّ يَسْتَحِقُّ هذا التَّكريمَ، بَلْ وأَكْثَرَ مِنْهُ.. فَمُذْ جاءَ لاجِئًا الى هذِهِ القَرْيَةِ وهْوَ مِثالُ الإِنْسانِ الشَّهْمِ، والفَلّاحِ النّاشِطِ المُحِبِّ لِلأَرضِ، والعارِفِ بِشُؤونِ الزِّراعَةِ

ومَواسِمِ الزَّرْعِ وكُلِّ ما لَهُ عَلاقَةٌ بِما يَجِبُ على الفَلّاحِ الأَصيلِ مَعْرِفَتُهُ من أَنْواعِ التُّرْبَةِ، ومِنْ فُنونِ الزِّراعَةِ، فَلا عَجَبَ إِذًا إِنْ أَصْبَحَ مَرْجِعًا لِفَلّاحي القَرْيَةِ وهْو صاحِبُ الخِبْرَتَينِ: خِبْرَةِ الآباءِ والأَجْدادِ، والخِبْرَةِ العِلْمِيَّةِ الَّتي جَناها مِمّا قَرَأَهُ ويَقْرَؤُهُ في الكُتُبِ الَّتي جَعَلَ مِنْها أَصْدِقاءَهُ الأَوفِياءَ، وجَعَلَتْ مِنْهُ مُثَقَّفًا.. أَجَلْ.. مُثَقَّفًا بِما تحْمِلُ هذِهِ الكِلِمَةُ مِنْ أَبْعادٍ..

شُرودُ السَّيِّدِ عائِد لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ حُزْنِهِ على وَفاةِ والِدِهِ فَقَطْ، بَلْ بِسَبَبِ الرِّسالَةِ الَّتي وَجَدَها في جَيبِ جاكيتِهِ الدّاخِلي.. تُرى ما تَحْمِلُ هذهِ الرِّسالَةُ؟! لَعَلَّها رِسالَةُ تَأْنيبٍ وتَقْريعٍ لِانْتِقالِهِ مِنْ بَيتِهِ إِلى بَيتِ المُسِنّينَ لِيَقْضي سَنَواتِهِ الأَخيرةَ.. ويَسْتَبْعِدُ السَّيِّدُ عائِد هذِهِ الفِكْرَةَ بِدَليلِ أَنَّهُ هو وإِخْوَتُهُ وأَخَواتُهُ، رَفَضُوا أَنْ يَتْرُكَ الوالِدُ البَيتَ.. ورَفَضُوا.. ورَفَضُوا...! ولَكِنَّهُ أَصَرَّ.. وأَصَرَّ.. إِلى أَنْ نَزَلوا عِنْدَ رَغْبَتِهِ.. فَقَدْ رَعاهُمْ صِغارًا وأَقْعَدَهُمْ على ظَهْرِهِ راضِيًا آمِلًا، ولا يُريدُ أَنْ يَكونَ في كِبَرِهِ ثِقْلًا على أَحَدٍ؛ خاصَّةً هذِهِ الأَيّامَ الّتي جَعَلَتِ الحَياةَ فيها رَكْضًا، واللُّقْمَةَ الشَّريفَةَ أَمْرًا صَعْبَ المَنالِ..... وبالتّأْكيدِ لَنْ تَكونَ وصِيَّتَهُ؛ فَقَدْ كَتَبَها يَومَ وَزَّعَ الأَرضَ بَينَهُمْ.. الأَرْضَ الَّتي عَمِلَ فيها أَجيرًا.. فَنَكَثَ وحَرَثَ،

وزَرَعَ وقَلَعَ، وجَمَعَ المالَ واشْتراها وأَصْبَحَ مالِكَها.

وما إِنِ انَفَضَّ الحَشْدُ حَتَى اعْتَذَرَ السَّيِّدُ عائد مِنَ الباقينَ ودَخَلَ غُرْفَتَهُ بِحُجَّةِ أَنْ يَرتاحَ قَليلًا.. فَتَحَ الرِّسالَةَ وأَخْرَجَ وَرَقَةَ فوليو مَطْوِيَّةً بِعِنايَةٍ.. فَتَحَها وقَرَأَ:

وَلَدي العَزيز (عائِد)! لَقَدْ أَسْمَيتُكَ عائِدًا تَيَمُّنًا بِالعَودَةِ.. يَومَها طَمْأَنونا بِأَنَّها قَريبَةٌ.. انْتَظَرْنا.. وانْتَظَرْنا.. وها هُوَ ذا قِطارُ العُمْرِ قَدْ وَصَلَ مَحَطَّتَهُ الأَخيرةَ وما زِلْتُ أَنْتَظِرُ، وقَدْ آلَيتُ على نَفْسي أَنْ لا أُوَدِّعَ هذِهِ الفانيَةَ قَبْلَ أَنْ أَنْفُثَ ما في صَدْري مِنْ وَجَعٍ قَدْ أَزْمَنَ، ومِنْ خَيباتِ أَمَلٍ جَفَّفَتْ لي مَصادِرَ فَرَحي ولَمْ تُبْقِ لي غَيرَ ضَحِكاتٍ ساخِرةٍ! كُنْتُ صَغيرًا وظَنّي أَنَّ الرِّجالَ لا يَبْكونَ.. البُكاءُ مَقْصورٌ على الأَطْفالِ فَقَطْ! الى أَنْ رَأَيتُ جَدَّكَ يَبْكي.. سَأَلْتُ جَدَّتَكَ بِبِراءَةٍ: لِماذا يَبْكي أَبي يا أُمّاهُ؟! قالَتْ وهي تَشْرَقُ، هيَ الأُخرى، بِدُموعِها: انْقَصَفَ عودُ السِّنْدِيانِ وذَوى غُصْنُ الرَّيحانِ عِزُّ الدّين القَسّام...!! لَمْ أَفْهَمْ، ولكِنّي تَخَيَّلْتُ أَنَّ أَمْرًا رَهيبًا قَدْ حَلَّ بِنا! وفي رَيعانِ شَبابي جاءَ اليُهْدانُ.. جاؤُوا بِمَكْرِ (رِفْقَةَ) زَوجَةِ (إِسْحَقَ) وابْنِها (يعْقوب)، وكانَـتْ تُفَضِّلُهُ على ابِنِها البِكْرِ (عيسو)..... قالَ عيسو:

-بارِكْني يا أَبي !

فَقالَ:

-قَدْ جاءَ أَخوكَ بِمَكْرٍ وأَخَذَ بَرَكَتَكَ! ....

جاؤُوا وحَطَّ بِنا الهَجيجُ في هذِهِ القَرْيَةِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتْ قَرْيَتُنا رُكامًا مِنْ حِجارةٍ وَطينٍ.. وحين خَرَجَ أُولُو الأَمْرِ مِنْ ذَوي القُرْبى مِنْ جُحورِهِمْ، قالوا: إِذا كانَ الإِنْجليزُ مِخْرَزًا فَنَحْنُ الكَفُّ الَّتي لا تَسْتَطيعُ مُلاطَمَتَها، إِنَّها نَكْبَتُنا! نَحْنُ نُريدُ.. واللهُ يَفْعلُ ما يُريدْ!!!

قُلْنا: بَلْ هي الدَّمْعَةُ الَّتي لا تَجِفُّ!

وقالَتْ الجَمْعِيَّةُ العامَّةُ لِلْأُمَمِ المُتَّحِدَةِ:

التَّقسيمُ هو الحَلُّ!!

وقالَ الحَلَواني سَليم، الخَبيرُ بِشُؤونِ التَّقسيمِ:

لَقَدْ أَصْبَحَتْ بِلادُنا كَعْكَةً!!

وحينَ أَرْعَدَتْ مَدافِعُهُم مَرَّةً ثانِيَةً وأَكَلَتِ الكَعْكَةَ كُلَّها

قالَ مَنْ جَلَبُوا الهَزيمَةَ:

-إِنَّها نَكْسَةٌ!!

قُلْنا: بَلْ هي الهَزيمَةُ!!

لَكَأَنَّ هذِهِ البِلادَ مُحَرَّمَةٌ عَلَينا.... كَمْ مِنْ غُزاةٍ مَرُّوا مِنْ هُنا حِثِّيّونَ وفَراعِنَةٌ وهِكْسوسُ ويونانِيّونَ ورُومُ وبيزنطِيُّونَ... وتَتَارُ ومَماليكُ وصَليبِيّونَ وأَتْراكُ وإِنْجليزُ ويُهدانُ ونَحْنُ إِمّا (زَكَرِيّا) يُنْشَرُ أَوْ (مِسيحٌ) يُصْلَبُ!! لَقَدْ عِشْتُ ما عِشْتُ وأَنا كَالحَزينَةِ الّتي جاءَتْ لِتَفْرَحَ فَلَمْ تَجِدْ لَها مَطْرَحًا.. قيلَ لي:

-لَقَدْ بالَغْتَ! أَحَقًّا لا تَجِدُ لَكَ مَطْرَحًا وهذا العالَمُ الرَّحْبُ يَتَّسِعُ لِمِلايينَ فَوقَ مَلايينَ؟! قُلْتُ:

-بَلى.. ولكِنَّ مَطْرَحي اليومَ رُكامٌ فَوقَ رُكامٍ.. كانَ يَشْكو مِنَ الضّيقِ ولكِنَّهُ كانَ يتَّسِعُ لِأَلْفِ صَديق!

نَحنُ جيلٌ مَنْكوبٌ قَبْلَ النَّكبَةِ يا وَلَدي يا عائد.. يَقولونَ إِنَّ لِلنَّصْرِ طَعْمًا أَلَذَّ من طَعْمِ تُفّاحِ الجَنَّةِ! لَكَأَنَّ طَعْمَ ذاكَ التُّفّاحِ مُحَرَّمٌ عَلَينا فَنَموتَ مُلَفَّعينَ بِأَلْفِ خَيبَةٍ وخَيبَةٍ!

فَبِاللهِ عَلَيكَ يا وَلَدي أَنْ تَزورَ خَرابَةً كانَتْ قَرْيَةً يَومًا، وأَنْ تَقِفَ على أَطْلالِ بَيتِ أَجْدادِكَ، وتَرْفَعَ يَمينَكَ عالِيًا، وتَصْرُخَ بِأَعْلى ما أُوتيتَ مِنْ قُوَّةِ صوتٍ قائِلًا:

-الوُسْطى مَعَ السّاعِدِ، إِلى ما فَوقَ الذِّراعِ في دُبْرِ هذا العالَمِ!

كُتُبٌ صَدَرَتْ لِلشّاعِرِ:

1. وَطَني يَنْزِفُ حُبّاً - شِعْر - الأَسوار/عكّا 1978 م
2. وطني رُدَّني إِلى رُباكَ شَهيداً - قِصَصٌ – الأَسوار/عَكّا 1981 م
3. أَموتُ قابِضاً حَجَراً - شِعْر – الأَسوار/عَكّا 1986 م
4. تَمْتَماتُ آخِرِ اللّيلِ - شِعْر – الأَسوار/عَكّا 1988 م
5. قابِضونَ على الجَمْرِ - شِعْر – إِصْدار خاصّ 1991 م
6. حَديثُ الحَواسّ - شِعْر – إِصْدار خاصّ 1992 م
7. عَوَضٌ يَسْتَرِدُّ صِباهُ - شِعْر - إِصْدار خاصّ 1993 م
8. أَنْتِ سَبِيَّتُهُمْ وَشِعْري نَحيبُ العاجِزِ - شِعْر – إِصْدار خاصّ1993م
9. لَيسَ في الحَقْلِ سَوسَنٌ لِلْفَرَحِ - شِعْر – إِصْدار خاصّ 1995 م
10. الحُبُّ أَوَّلاً - شِعْر – إِصْدار خاصّ 1995 م
11. فَرَحٌ يابِسٌ تَحْتَ لِساني - شِعْر – إِصْدار خاصّ 1996 م
12. على سَريرٍ أَبْيَض - نَصٌّ – الأَسْوار /عَكّا 1998 م

13. أَنا هُوَ الشّاهِدُ - شِعْر – الأَسْوار /عَكّا 2001 م

14. تَضيقُ الخَيمَةُ. يَتَّسِعُ القَلْبُ - شِعْر- الأَسْوار /عَكّا 2007 م

15. الكِتابانِ - شِعْر – الأَسْوار /عَكّا 2007 م

16. أَخَذَتْني القَوافي - شِعْر – إِصْدار خاصّ 2013 م

17. هذا العالَمُ لَيسَ بَريئاً - شِعْر – إِصْدار خاصّ 2014 م

18. إِنّها قريتي – نص تسجيلي - إصدار منشورات أ. دار الهدى عبد زحالقة 2016م

19. أَفراحٌ مُؤجّلة..! - شِعْر – إِصْدار مكتبة كلّ شيء - حيفا 2017م

20. دبيبة نملة - رواية - إِصْدار منشورات أ. دار الهدى عبد زحالقة 2018م

21. قَبْلَ أَنْ يَرْتَعِشَ القَلَم - شعر – إِصْدار مكتبة كلّ شيء - حيفا 2020م